الفصل الثالث

القيـــــــــادة .

١ ـ حقوقهـــــــــا .

٢ ـ واجباتهـــــــا .

obeikandl.com

obeikandl.com

القيـــادة

ونعنى بالقيادة كل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين العامة فالخليفة وعماله ، وقواد الجيش والقضاة ، ورؤساء الشرطة والوزراء ، وغيرهم ممن يقومون بأعمال عامة فى الدولة الإسلامية هم المعنيون بكلمة القيادة .

وهم بما خولهم الله من سلطة ، وبما أعطاهم المسلمون من ثقة عليهم من العبء أكثر مما على غيرهم من المسلمين ، وهم للدولة الإسلامية كالقلب للإنسان ، إذا صلحوا صلحت الأمة وإذا فسدوا كان القضاء الذى لا قيامه بعده ، حتى يعودوا إلى شرع الله .

ولقد فرض الله عز وجل على القيادة واجبات لا يجوز التفريط فى شيء منها ، وجعل لها حقوقاً لا يجوز للمسلمين أن يهملوها أو يقصروا فى أدائها .

لهذا كان لزاماً على القيادة أن تقوم بدورها ، وكان كذلك واجباً على الرعية أن تؤدى لها حقوقها ، فإذا أهملت القيادة أو قصرت الرعية ، اختلت موازين الدولة ، وتعرضت بذلك للضعف المؤدى إلى الضياع والهوان ، وآذنت بالانتهاء والزوال .

ولا خير فى قيادة لا تطالب بحقها ، ولا تؤدى واجبها ، كما لا رجاء فى رعية تنعم بجهد قادتها ، وتقصر فى إعطائها حقوقها ، ولكى تستقيم الأمور ، وتعمر الدولة ، وتبقى قوية عزيزة مرهوبة لا بد أن يقوم كل فرد فيها بالدور المنوط به ، عندئذ تجرى الأمور ، فى مجاريها الطبيعية ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

واجبات القيـادة

إن واجبات القيادة الإسلامية نابعة من الوحى الإلهى الذى أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ ومن أجل هذا كان لزاماً على القيادة أن تتقيد بها ، وليس لها الحق فى ترك شيء منها ، أو التخلى عنها ، أو استبدال شيء منها بشيء آخر إلا أن يكون فيه مصلحة أعظم للمسلمين ، وتلك قاعدة شرعية ، قال بها

جمهور غفير من علماء المسلمين .

وتتلخص واجبات القيادة فيما يأتى :

١ ــ تنفيذ الشريعة .
٢ ــ نشر الدعوة .
٣ ــ القضاء على الطواغيت .
٤ ــ إعداد الجيش لإعلاء كلمة الله .

أولاً : تنفيذ الشريعة :

إن تنفيذ الشريعة ، وتطبيق حكم الله فى الأرض ، هو أول واجبات القيادة وأعظم مهماتها ، ذلك لأن الله عز وجل إنما أمر بتنصيب الخليفة ، وأن الأمة إنما أعطته ثقتها ، ليكون قائماً على أمر الله ، حارساً لشريعته منفذاً لأحكامها ، فإذا لم يؤد مهمته فلا خير فى وجوده وإذا لم يقم بواجبه فلا داعى لتنصيبه .

والشريعة الإسلامية كل لا يتجزأ ، فلا يقبل فيها أداء العبادةوترك القيادة ، ولا يجوز معها إقامة الدين وإهمال الدولة ، ولا يصح فى نظامها التزام النصح والإرشاد وعدم الاهتمام بالجهاد ، والتفريط فى شىء منها قل أو جل يعتبر إعراضاً عنها ككل .

فعلى القيادة مراعاة ذلك ، فلا تقبل من مسلم ترك شىء من أركان الشريعة مهما كانت حجته أو رأيه فى التأويل ، ولقد قاتل أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة وكان لهم فى ذلك تأويل ، ولم يقبل التفريق بين الصلاة والزكاة ، كما قاتل مسيلمة والأسود وسجاح لارتدادهم عن الإسلام ، ولم يفرق فى الحرب بين هؤلاء وأولئك .

وإنما فعل ذلك رضى الله عنه لأنه وهو أفهم المسلمين للإسلام بعد رسول الله ﷺ موقن بأن ترك شىء من الإسلام كترك الإسلام كله ، فالمفرط فى إقامة الصلاة كالمفرط فى إقامة الحد ، ومانع الزكاة كالمرتد .

كذلك يجب أن تراعى القيادة عند التنفيذ شمول الإسلام وعمومه ،

فلا تتهاون فى تطبيق نظمه على الحياة وواقع الناس فالنظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والعسكرى كلها أجزاء من الإسلام يكمل بعضها بعضا ، ولا يمكن ترك شيء منها . واستبدال غيره به من النظم الوضعية ، والتهاون فى تطبيق شيء منها خروج على النظام الإسلامى ، واعتقاد أن النظم الوضعية أو شيئاً منها أتم وأكمل من النظم الإسلامية كفر يخرج صاحبه من الملة .

وإعلان أن الحاكمية لله جل وعلا من أعظم ما يجب مراعاته عند تنفيذ الشريعة ، فالحكومة الإسلامية لا تحكم بغير حكم الله ، ولا تنفذ غير شرع الله ، ولا تدين بدستور غير كتاب الله قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾(١) وقال : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾(٢) .

وقال : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾(٣) .

وإقامة العدل بين الناس جميعاً عند تنفيذ الشريعة من أهم مقاصدها ، فالله عز وجل قد حرم الظلم على عباده كما حرمه على نفسه سبحانه روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا »(٤) وقال عز من قائل : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾(٥) .

وحيث كان الظلم حراماً فى الشريعة الإسلامية يكون العدل واجباً لا محيد عنه ، قال تعالى : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾(٦) والتعبير بكلمة الناس هنا ليشمل الأمر الناس كل الناس المسلم منهم وغير المسلم ذلك لأن العدل فى نفسه مقصود فى الشريعة الإسلامية دون تفريق بين أتباعها

---

(١) سورة يوسف ٤٠ .
(٢) المائدة ٤٦ .
(٣) النساء ١٠٥ .
(٤) رواه مسلم .
(٥) سورة ق الآية ١٩ .
(٦) النساء ٥٨ .

وغيرهم من البشر .

والآية الكريمة التى ذكرتها سابقاً ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾ إنما نزلت لتبرىء ساحة يهودى اتهم ــ زوراً ــ بالسرقة وأشارت إلى السارق الحقيقى ، وهو مسلم من بنى ظفر أفبعد هذه المثالية الرائعة فى إقامة العدل ، وتحقيق الحق ، يدعى مدع أن الإسلام يتوخى العدل بين أتباعه فقط ؟

وتأمين الناس على عقيدتهم وعلى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم من مهمة الحكومة الإسلامية ، فإنه من حق كل فرد يعيش فى كنف الإسلام ، ويستظل بظل دولته أن يكون آمناً على كل ما ذكرنا ، لا يتعرض له أحد ، فى شىء منها إلا بحقها ، وقد بين الإسلام هذا الحق وحدده ، فلا يجوز تجاوزه .

والشريعة الإسلامية قد أعلنت الأمان للناس جميعاً ورسول الله ﷺ يبلغ عن ربه هذا الإعلان فى خطبة حجة الوداع ، بصورة لا تحتمل الشك ولا التأويل ، فيقول : « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » .

وكان عمر رضى الله عنه يكره ترويع الناس وإخافتهم فقد روى أنه تنحنح والحجام يقص له شعره ، فذهل الحجام عن نفسه ، وكاد يغشى عليه ، فأمر له بأربعين درهماً(١) .

وكأن عمر رضى الله عنه أراد تعويض الرجل عما أصابه حتى تهدأ نفسه ، ويسترد أنفاسه .

وقد روى عنه أيضاً أنه كان يكتب إلى عماله ﴿لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجسوهم فتروعوهم » .

وقد أباح الإسلام للإنسان أن يدافع عن ماله وعرضه إذا حصل اعتداء على شىء منها ، واعتبر الموت فى حال الدفاع عنها شهادة ، وضمن الأمن

---

(١) عبقرية عمر ص ٢٠ للعقاد .

والأجر لمن ينتصر فى المعركة .

يقول ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[1] .

هكذا يجب أن يعيش الناس فى ظل الإسلام آمنين على كل ما يهمهم ، مطمئنين على أموالهم وأعراضهم ، ومن أجل هذا وضع الله عز وجل الحدود عقوبة لكل من يحاول الاعتداء على شيء منها .

فشارب الخمر يجلد لأنه اعتدى على عقله فغيبه وأضعفه والإسلام بهذا يؤكد أن العقل البشرى ليس ملكاً لصاحبه يتصرف فيه كما يشاء ، وإنما هو بما ينتجه يجب أن يكون فى خدمة المجتمع الذى يحيطه برعايته .

والسارق تقطع يده ، لأنه اعتدى على مال الناس وسلبهم حقوقهم .

والقاتل يقتل ، لأنه سلب إنساناً حياته من غير ذنب جناه .

والزانى يجلد إن كان عزباً ، ويرجم إن كان متزوجاً ، لأنه هتك أعراض الناس واعتدى عليها .

ففى إقامة الحدود تنفيذ للشريعة يأمن به الناس على ما يملكون .

وبالجملة فإن تنفيذ الشريعة ، يجب أن يكون عملاً تطبيقياً ، لا فكراً نظرياً ، يعيشه الناس فى المجتمع الإسلامى واقعاً ينعمون به ، لا فلسفة يتطلعون إليها .

ولهذا فإن الله عز وجل وصف الذين يعرضون عن تنفيذ الشريعة بأخس الصفات وأبشعها ، حيث وصفهم بالكفر مرة ، وبالظلم مرة ثانية ، وبالفسق مرة ثالثة ، فقال جل شأنه :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[2] .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه .
(٢) سورة المائدة الآياة ٤٤ ــ ٤٥ ــ ٤٧ .

ثانياً : نشـــر الدعـــوة :

إن نشر الدعوة من أهم واجبات القيادة الرشيدة ، وإن الله عز وجل لم يرسل الرسل ، ولم ينزل الكتب إلا لتكون حجة على الناس ، ولقد روى لنا التاريخ أن الجيوش الإسلامية قد ضربت فى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها تحمل للناس الخير ، وتدلهم على الرشد وتزيل من طريقهم الطواغيت التى تعوقهم عن الوصول إلى هدى الله ، ومعرفة الحق والوصول إليه .

وإن مما يدل على ذلك ، ويوضح أن نشر الدعوة من أهم واجبات القيادة ، أن رسول الله ﷺ لم يكد يستقر به المقام فى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية ، حتى كتب إلى الحكام فى أقطارهم المختلفة يدعوهم إلى الله ، ويرغبهم فى الدخول فى الإسلام ، ويبشرهم بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة إن أسلموا ، فإن هم أصروا على كفرهم ، فإنهم سيبوءون بإثمهم وإثم أممهم .

ولقد كتب رسول الله إلى قيصر ملك الروم ، وإلى المقوقس صاحب مصر وإلى النجاشي ملك الحبشة ، كما كتب إلى كسرى ملك الفرس .

وكانت كل كتبه ﷺ دعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإنا لنلاحظ أنه ﷺ كان يكتب إلى كل ملك بما يناسب حاله ووضعه ، ونظرة إلى كتبه تبين لنا مدى فهمه ﷺ لأحوال هؤلاء الملوك ، ومعرفته بالأسلوب الصالح لكل منهم .

فإذا كتب إلى كسرى يشدد اللهجة وينذره بالويل وتحمل الإثم إذا أصر وأعرض فيقول له « من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم الفرس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسـلم تسلم ، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك »[1] .

ذلك لأن كسرى يعتقد أنه وارث الحق الملكى المقدس عن أجداده وسليل الملوك لا يذعن بسهولة ، ولأنه كان مجوسى المذهب لا يدين بدين سماوى فكان هذا الأسلوب أليق به من غيره .

---

(١) تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٦٠ ط ٨ حسن إبراهيم .

ونراه ﷺ إذا كتب إلى النجاشي ألان له الكلام وذكره بصفات الله عز وجل التي وردت عنه في الإنجيل وأشار له إلى نبوة عيسى وطهر مريم ، كل ذلك ليستميل قلبه للإسلام ، فقد كان النجاشي رجلاً نصرانياً يؤمن بالإنجيل ، ويعترف بمكانة عيسى وأمه مريم عليهما السلام فيقول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلام الله عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى »[1] .

وهكذا نجد الأسلوب يتراوح بين الترغيب والترهيب ، تقديراً لموقف النجاشي ، وحثا له على الدخول في الإسلام ، وحماية المسلمين الذين يفدون إليه .

ومن هذا العرض نتبين السياسة الرشيدة التي كان يسير عليها رسول الله ﷺ في معاملة الناس ودعوتهم إلى الله ، والأسلوب الحكيم الذي يتبعه في نشر الدعوة والتبشير بها .

فلما جاء الخلفاء الراشدون نهجوا نهج القائد العظيم ﷺ فكان رائدهم نشر الدعوة في كل الأصقاع والأزمان ، وكانوا يوصون قواد الجيوش التي يبعثونها بتقوى الله في السر والعلن ، ويطلبون منهم عرض الإسلام أولاً على من يذهبون إليهم ، فإن أجابوا كفوا عنهم ولم يحاربوهم ، فإن أبوا طالبوهم بالجزية ، فإن رفضوا فهم هم الطواغيت يجب إزالتهم من طريق الحق حتى يتضح للناس وعندئذ لا مفر من الحرب فهي الوسيلة الوحيدة لإزالة الطغيان وتأمين الطريق للباحثين عن الحق .

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

وحتى مع الناس جميعاً كان ﷺ يدعوهم إلى الإسلام فقد أرسل بعد فتح مكة الرسل والسرايا يدعو الناس إلى الدين من غير قتال ولا سفك دماء .

يقول الأستاذ هيكل : « وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شئون مكة ، ويفقه أهلها فى الدين ، وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال ، ولتحطيم الأصنام من غير سفك دماء »(١) .

فلما تولى أبو بكر رضى الله عنه وكان المرتدون قد تمردوا ، وأعلنوا خروجهم على الإسلام ، كان الخليفة يرسل الجيوش لتدعوهم إلى الإسلام فإن لبوا تركوا وشأنهم وإن أصروا على الكفر قاتلوهم حتى يفيئوا إلى الإسلام .

يقول الأستاذ العقاد : « وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالداً إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليه »(٢) .

وفى عهد عمر رضى الله عنه والمعركة دائرة بين المسلمين والفرس ، وفى حملة القادسية بالذات ، يرسل القائد ـــ سعد بن أبى وقاص ـــ رسلاً إلى يزدجرد ، وكان بينهم النعمان بن مقرن رضى الله عنه وأخذ النعمان يتكلم عن أصحابه ويوجه الكلام إلى يزدجرد ملك الفرس .

يقول ابن الأثير : « فتكلم النعمان عن أصحابه ، فقال : إنَّ الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . . . إلى أن قال : فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن ، وقبّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه ـــ الجزية ـــ فإن أبيتم فالمناجزة »(٣) .

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا أن مهمة الخلفاء الأساسية هى نشر الدعوة وإدخال الناس فى الإسلام ، فإن أجابوا كان لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا طولبوا بالجزية ، فإن أجابوا حقنوا دماءهم وعصموا أموالهم ، وإن رفضوا فليس هناك إلا الحرب ، وآخر الدواء الكى .

---

(١) حياة محمد ص ٤٢٦ لهيكل .

(٢) عبقرية عمر ص ١٨٠ للعقاد .

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣١٥ .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وشكا إليه عماله قلة الدخل بسبب إسلام الناس ، وعدم دفع الجزية ، فأرسل عمر إليهم بكلمته المأثورة « إن الله أرسل محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يرسله جابياً »[1] .

إن هذه الكلمة مع بساطتها تحمل الحقيقة الكبرى التى يحملها كثير من الناس ، وتبين الغاية العظمى لتلك الرسالة الإنسانية السامية ، ألا وهى : دعوة الناس إلى الخير ، والأخذ بأيديهم إلى الحق ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

إن نشر الإسلام ، وتبليغه للناس هو الغاية التى من أجلها أرسل الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ وهو التطبيق العملى للآية الكريمة ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[2] .

بل هو اللحن العذب الموحى به الهتاف الربانى الكريم ﴿ **ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا** ﴾[3] .

كيف ننشر الدعوة ؟

ويجب على القيادة أن تتبع فى نشر الدعوة كل أسلوب يوصل إلى تلك الغاية ، ويحقق المطلوب فى النهاية ، وعلينا أن نعتمد الأساليب الحديثة التى استغلها أعداء الإسلام فى بث عقائدهم ونشر أفكارهم ، وتتلخص هذه الوسائل فيما يأتى :

أولاً : وسائل الأعلام :

وهى بكافة أنواعها أسلوب جيد إذا أحسن استغلاله ، فالصحف

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٣١ .
(٢) الصف ٢ .
(٣) الأحزاب ٤٥ ــ ٤٦ .

اليومية ، والمجلات الأسبوعية أو الشهرية ، والنشرات الدورية ، والإذاعة والتلفزيون ، كل هذه وسائل هامة ومفيدة فى نشر الدعوة .

وعلى القيادة أن تستغل الكفاءات والمواهب ، فى استعمال هذه الوسائل ، وعليها أن تدرب وتمرن إذا لم يكن لديها كفاءات وعليها أن تهتم بالتخصص ، فتبعث من كل فرقة طائفة تتقن فناً من فنون الإعلام ــ ولو إلى بلاد الأعداء ــ فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو أحق بها أنى وجدها .

وعلى هؤلاء المتخصصين دراسة ميول الناس ورغباتهم وأن يعرفوا الأساليب التى تؤثر فيهم ، وتجذبهم إلى ما يدعونهم إليه ، فهناك القصة ولها أثرها الواضح فى نفس السامع والقارىء ، وهناك التمثيليات الهادفة التى تبعث فى النفوس الطموح ، وتثير فيها حب الجهاد فى سبيل الله ، وفى تاريخنا مادة دسمة لهذه الموضوعات .

وهناك الحوار المثير الذى يحفز النفوس إلى الاستزادة ويدفعها إلى معرفة الحق ، وهناك المقالات التى تتغلغل فى النفس البشرية ، وتحرك بين جوانبها الإيمان بفضل ما تحمله بين طياتها من خير ورشد وهداية .

فنحن إذا قدمنا للناس هذه الألوان من الأساليب ، وهى تحمل بين أحضانها ما تدعوهم إليه من العقيدة الصحيحة ، والإيمان العميق ، والأخلاق الفاضلة ، والمثل الحية ، والآداب والتقاليد التى نعتز بها ، نكون قد ولجنا إلى قلوبهم من حيث يجب أن نلج ، ونكون بذلك قد قدمنا لهؤلاء المولعين بهذه الأساليب عوضاً عما يلهثون وراءه من هذه التفاهات التى استولت على عقولهم فأضلتها عن الحق ، والخرافات التى استحوذت على قلوبهم فانحرفت بها عن جادة الصواب ، والملهيات التى سيطرت على نفوسهم فأعرضت عن الرشد ، ومالت إلى الغى .

وآنئذ نستطيع أن نقول : أميطوا عنا هذا الأذى وهاكم العوض ماثلاً بين أيديكم ، وآنئذ تنبهر أنفاس المخادعين ولا يلحقون بنا ، وتتقطع السبل دون المضللين فلا يصلون إلى ما يقصدون .

ثانياً : الكتب والبحوث :

ويستحسن أن تكون بأسلوب سهل ممتع ، يفهمه عامة الناس وخاصتهم ، وتتناول هذه الكتب وتلك البحوث الأفكار الإسلامية الصحيحة ، وفى مقدمتها العقيدة التى هى أساس الإيمان ، كما تتناول النظم التى جاء بها رسول الله ﷺ إلى الدنيا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتعرض المشكلات التى دوخت الناس وتقدم لهم الحلول فى ضوء الإسلام .

وتركز على المفاهيم التى حاول أعداء الإسلام إبعادنا عنها على أنها ليست من الإسلام ، وهى فى الحقيقة من صميم الإسلام .

وذلك مثل سياسة الحكم ، وتنظيم الشئون المالية ، وتأسيس المصارف ، وإعداد الجيوش ، وتنظيم الأحوال الاجتماعية وتدعيم الأمن ، وإنشاء المصانع ، وكفالة العاطلين ، والتأمين الصحى ، إلى غير ذلك مما أوهمنا أعداؤنا أنه من السياسة وليس من الدين .

ويفضل أن تعرض هذه الأفكار ونظيراتها فى كتيبات يسهل حملها ، كما تسهل قراءتها ، كل فكرة أو نظرية أو بحث فى كتيب على حده ، وتتسلسل فى ربط قوى ، وجاذبية مؤثرة ، بحيث لا ينتهى القارىء من كتيب حتى يجد نفسه مشدوداً إلى قراءة ما يليه .

وقد اخترت أن نقدم الأفكار فى كتيبات لأن الناس لم يعد لديهم طاقات بحمل الكتب الضخمة ، ولأن المشاغل الكثيرة صرفتهم عن مطالعة البحوث المطولة ، حاشا العلماء الباحثين وأصحاب الرسالات والمفكرين ، فهؤلاء تؤلف لهم المطولات التى تشبع رغبتهم ، والتى تتناول كل دقيقة وجليلة بالشرح والتفصيل ونرجع كل كلمة فيها إلى مصادرها الأصيلة ، ومنابعها العميقة ذلك لأن عقولهم لا يقنعها السرد السريع ، ولا ترضى بالعرض السطحى ، وثقافتهم وإيمانهم لا يشبعها إلا الفكرة الناضجة والبحوث العميقة .

وثالثاً : الدعاة :

الدعاة هم الأشخاص الذين يحملون الدعوة إلى الناس بأعمالهم قبل أقوالهم ، وبسلوكهم وحسن سيرتهم قبل خطبهم ومحاضراتهم ، ولهذا كان الاهتمام بتربية الدعاة وتدريبهم واختيارهم أمراً لا بد منه .

فالدعاة هم القدوة التى ينظر إليها الناس . ويتطلعون إلى خلقهم ومعاملاتهم على أنهم المثل الذى يحتذى ، والأسوة التى لا يرضون بها بديلا ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يختار الدعاة ويرسل منهم إلى كل جهة ما يناسبها ، وما تحتاج إليه منهم .

فقد أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة ليعلم أهلها الدين ، ويحفظهم القرآن الكريم ، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليقوم بنفس المهمة ، وإذا بحثنا هذا الاختيار وجدناه موفقاً كل التوفيق ، فمصعب فى هذه الفترة هو أنسب الدعاة إلى أهل المدينة فقد كانوا فى حاجة إلى من يقرئهم القرآن ، وهو فتى جلد يتحمل معهم ما يتحملون ، كذلك كان معاذ مع أهل اليمن ، حيث كانوا فقهاء يعجبهم عمق الإيمان والتقوى والورع ، وكانت هذه الصفات متوفرة فى معاذ رضى الله عنه .

كذلك كان عمر رضى الله عنه يختار الدعاة ، ثم يرسلهم لينشروا الإسلام ، ويفقهوا الناس ، فقد أرسل إلى الكوفة عبد الله بن مسعود فاجتمع حوله الناس ، يفقههم ، ويؤدبهم بآداب القرآن ، حتى قال فيهم سعيد بن جبير رحمه الله : « كان أصحاب عبد الله سرج هذه القرية »[1] .

ولما احتاج أهل الشام إلى من يفقههم ، ويعلمهم القرآن ، أرسل يزيد بن أبى سفيان إلى عمر بن الخطاب يقول له : « قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء »[2] .

وهكذا كانوا يختارون الدعاة ، وينتقونهم انتقاء ، وأما فى العصر

(١) فجر الإسلام ص ١٨٤ .

(٢) البخارى فى التاريخ .

الحاضر ، وقد أصبحت الدعوة فناً يحتاج إلى دراسة وخبرات ، وأصبح الدعاة فى حاجة إلى دراسة أساليب الأعداء ، ليستعملوها ضدهم ، وليتجنبوا خطرها فى أصحابهم .

وحيث أصبح الدعاة يبنون عملهم على أسس علمية مدروسة تبحث نفسيات الناس ، وأوضاعهم الاجتماعية ، وأحوالهم الشخصية ، ثم يرسمون الخطط ، ويبدأون فى التنفيذ .

فهناك المدارس التبشيرية ومناهجها التى وضعت على أسس نفسية لتخرج الناس من دينهم ، وهناك الدعايات الحزبية التى تعتمد الإغراء وتتوخى اللعب بعقول السذج والبسطاء ، وهناك المستشفيات لمعالجة المرضى ، واستغلال أوضاعهم النفسية القلقة والإيعاز إليهم بما يغريهم بالدخول فى دينهم أو مبادئهم إلى غير ذلك من الأساليب .

لهذا كان لزاماً أن يتسلح دعاتنا بكل هذه الأسلحة ، فيدرسون ما يدعون إليه دراسة علمية صحيحة ، ويستعملون سبل الإقناع المدعمة بالأدلة العلمية المدروسة .

ونحن نتفوق على غيرنا ببساطة الأفكار التى ندعو إليها حيث لا فلسفة ولا تعقيد ، ولا تنويه ولا تثليث ، كما نتفوق بوضوح الدين الذى ندعو إليه ، والاله الذى ندين له وشعور الناس بحاجتهم إلى ما ندعوهم إليه ، واطمئنان النفوس إلى المصير الذى نتطلع إليه فى ظل دعوتنا ، وراحة القلوب من الهموم التى استولت على الناس فأزعجتهم .

لهذا فإننا لسنا فى حاجة إلى استغلال الأوضاع النفسية ، أو الظروف الاقتصادية لمن ندعوهم ، بل نحن نقدم لهم المعونة لتتحسن أوضاعهم النفسية ، وتزول ظروفهم الاقتصادية ثم ندعوهم وهم فى كامل صحتهم وأنسب ظروفهم ، عندئذ يفهمون الحق ، ويدخلون فى دين الله ، ويستجيبون لداعى الله .

مجالات العمل :

ومجالات العمل لدى الدعاة تنحصر ـــ على تعددها ـــ فى أمرين هامين ، هما الأساس الذى يجب أن ينشط فيه الدعاة ، ذانكم هما : الاتصالات الفردية ، والندوات والمحاضرات العامة .

وهما مجالان من أخصب الحقول للعمل الإسلامى ، حيث تكون النتائج ـــ فى معظم الأحيان ـــ مضمونة والفائدة حاصلة .

أ ـــ الاتصالات الفردية :

حين يقوم الدعاة بعد اتصالات ، وإنشاء صداقات بينهم وبين أفراد يتوسمون فيهم الخير ، ويلمحون منهم الميل إليه والرغبة فيه ، عندئذ تبدأ مهمة الداعية ، وليس كل إنسان يصلح لهذا النوع من العمل ، بل لا بد من توفر صفات فى الدعاة الذين يقومون بتلك المهمة .

فالشخصية المؤثرة المحبوبة ، والخلق الكريم الفاضل ، وسعة الاطلاع التى تجعل المدعوين يقرون بفضل الداعى ، ورحابة الصدر التى يستوعب بها كل العقبات ، ويتغلب بها على كل ما يعترضه ، وحسن الحديث الذى يذعن له المستمعون ، وبشاشة الوجه التى يستحوذ بها على الجالسين ، والمجاملات اللطيفة التى يستولى بها على قلوب من يتصل بهم ، كل هذه وأمثالها صفات يجب أن يتحلى بها الداعية ، فإنه على أساسها يستحدث الصداقات ، ويقوى العلاقات ، وحينئذ ينتهز المناسبات لعرض الدعوة ، وإظهار محاسنها ، ويؤكد على الأدلة التى تثبت صحة ما يقول .

عندئذ تتحول الصداقة إلى محبة ، والمحبة إلى أخوة ، ثم يتحقق الغرض المطلوب .

ب ـــ المحاضرات والندوات :

والدعاة هنا يجب أن يذهبوا إلى الأماكن العامة ،.وينتهزوا فرص اللقاءات

والاجتماعات ، وأن يرتبوا هم لإيجاد هذه الاجتماعات ليلتقوا فيها بالناس ، ويعرضوا عليهم أفكارهم ومبادئهم فى صورة محاضرات أو ندوات ، وليس كل إنسان يستطيع القيام بهذه المهمة ، بل هناك شروط وصفات لا بد من تحققها ، منها ما هو فى موضوع المحاضرة ، ومنها ما هو فى الداعية نفسه .

فأما التى فى الموضوع فتتلخص فيما يأتى :

١ ــ يجب أن يكون الموضوع متناولاً للمشكلات التى يعانى منها الناس فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتقدم حلولاً لها فى ضوء الإسلام .

٢ ــ أن يكون الموضوع مشتملاً على مسائل يجب أن يعرفها المسلمون كتوضيح النظم الإسلامية المختلفة ، وإظهار أن فى تطبيقها سعادة للبشرية .

٣ ــ أن يكون فى الموضوع مقارنات بين النظم الإسلامية وغيرها من النظم القائمة .

٤ ــ أن تشتمل على ما يظهر فضل الإسلام، وحرصه على تحقيق الخير للناس أجمعين .

٥ ــ إظهار الحضارة التى وضع أساسها القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وإبراز القواعد الإنسانية السامية التى قامت على تلك الحضارة التى سعدت بها الإنسانية فترة من الزمان إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة .

وأما التى فى الداعية فتتلخص فيما يأتى :

١ ــ أن يكون نموذجاً لما يدعو إليه مطبقاً له فى سلوكه وخلقه ومعاملاته ، متخلقاً بأخلاق القرآن فى كل ما يدعو إليه .

٢ ــ أن يهتم بمظهره الإسلامى العام ، فلا يبدو مخالفاً لسنة مشهورة ، أو متخلفاً عن خير يدعو الناس إليه .

٣ ــ أن يتمسك بالإسلام كنظام شامل لجميع نواحى الحياة كما يتمسك به كعقيدة صحيحة ، وشريعة محكمة .

٤ ــ أن يحترم عقول الناس وأوقاتهم ، فيعد الموضوعات التى يحاضر فيها

إعداداً وافياً ، ويدعمها بالأمثلة المقنعة ، والأدلة العقلية القاطعة ، مبرهناً على ما يقول بما حدث فعلاً فى الفترة التى كانت فيها للإسلام دولة قائمة ، وحكومة مسيطرة .

ولا يتكلم فيما لا فائدة منه ، ولا يدخل فى مناقشات لا يترتب عليها عمل مثمر ، ولا يتناول موضوعات تافهة لا ترفع من مستوى الناس ، ولا موضوعات فلسفية تضرب فى متاهات لا يعرف العقل منها مخرجا .

٥ ــ أن يتحرى الأسلوب السهل الممتع الذى يستفيد منه البسطاء ولا يمله العلماء ، وأن يراوح فيه بين الفكاهة المرحة ، والجد الحاسم ، كما يراوح فى المعانى بين الترغيب والترهيب ، وأن يتناول الحقائق العلمية ، ببساطة فى الأسلوب ، وخفة فى الألفاظ حتى تتقبلها النفوس ، ولا تنفر منها العقول .

وهكذا يكون الداعية قد أدى الدور الذى فى عنقه لدعوته وأخلى نفسه من المسئولية بين يدى الله عز وجل .

ثالثاً : القضاء على الطواغيت :

الطواغيت جمع طاغوت وهو مشتق من الطغيان الذى هو تجاوز الحد ، فالشيطان الذى يصرف الناس عن الخير طاغوت والصديق الذى يلهى صديقه عن الحق طاغوت ، والزوجة التى تحول بين زوجها والدعوة إلى الله طاغوت ، والمال الذى يورث صاحبه غطرسة وكبراً يصرفانه عن الرشد طاغوت ، والحاكم الذى يشرع للناس ليصرفهم عن شرع الله ، أو يخوفهم فلا يتمكنون من عبادة الله ، أو يحجر على أفكارهم وعقولهم حتى لا يروا إلا ما يرى ، ولا يفعلوا إلا ما يهوى طاغوت .

يقول الشوكانى فى تفسير الآية الكريمة ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت** ﴾[١] : الطاغوت الأصنام أو الشيطان أو كل رأس فى الضلال[٢] .

ويقول البيضاوى : الطاغوت كل ما يعبد من دون الله أو يصد عن عبادة الله[٣] .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

(٢) فتح القدير .

(٣) تفسير البيضاوى .

فالطاغوت إذن هو كل ما يصرف الناس عن الله عز وجل أو عن الحق الذى دعاهم إليه سبحانه على لسان رسوله ﷺ وإذا كان الأمر كذلك ، كان من أوجب واجبات القيادة الإسلامية القضاء على هذه الطواغيت لتذلل للناس الطرق الموصلة إلى الله ليهتدوا إلى الحق الذى دعاهم إليه ، ولتحقيق هذه الغاية السامية ، حذرنا سبحانه وتعالى من الشيطان ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾(١) وخوفنا من مصادفة إخوان السوء ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾(٢) كذلك حذرنا من الزوجة غير الصالحة ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾(٣) ونبهنا إلى خطورة فتنة الأولاد والمال ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾(٤) .

ثم أعلن الحرب على الحكام الطغاة الذين يشرعون للناس ويصدونهم عن الطاعة ، ويحولون بينهم وبين الحرية التى ينشدونها ، ليبحثوا بعقولهم عن الحق الذى فقدوه ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾(٥) .

إن مهمة الحكومة الإسلامية هى تبليغ الحق للناس ، وتمهيد الطريق للعقول كى تفكر وتقتنع بهذا الحق ، فإذا كانت هناك عقبة وجب عليها إزالة هذه العقبة ، والقضاء عليها ، حتى تتهيأ للعقول فرصة التفكير الحر فى ظل هذه الظروف ، وعندئذ تتاح لها فرصة الاختيار بعيدة عن الضغط والتهديد ، فإن عرفت الحق واهتدت إليه كان بها ، وإن ضلت الطريق ، عرضت بين يديها الأدلة المقنعة ، والبراهين القاطعة ، فإن أصرت على الباطل فإما الجزية وإما الحرب .

ولا يختلف اثنان فى أن الطغاة عقبة كأداء فى سبيل الحرية ـــ حرية الفكر الإنسانى ـــ ذلك لأن حرصهم على دست الحكم يدفعهم إلى تكميم الأفواه حتى لا تتكلم ، وتعطيل العقول حتى لا تفكر ، والحجر عليها لكى تعيش فى الظلام ، والحيلولة بينها وبين الحق لتظل هائمة فى الباطل .

---

(١) سورة فاطر ٦ .
(٢) سورة الزخرف ٧٦ .
(٣) التغابن ١٤ .
(٤) سورة التغابن ١٥ .
(٥) التـوبة ١٢ .

وكثيراً ما يلبس هؤلاء الطغاة لشعوبهم مسوح الرهبان ، ويكون بدموع التماسيح ، مدعين أن الرسل والدعاة إلى الحق قوم مخربون يريدون القضاء على ما ينعم به الناس من الحرية والعدالة ليحلوا محلها المبادىء الزائفة الهدامة .

هكذا يوسوس الطغاة لشعوبهم الضحية حتى يصرفوهم عن الحق الذى يدعوهم إليه المصلحون ، والآية الكريمة تصور لنا مشهداً طريفاً من هذا النوع من الخداع والتضليل .

هذا فرعون يقف فى قومه الذين غلبهم على عقولهم ، وأقنعهم بسخافته ـــ ربوبيته ـــ يناشدهم أن يتركوه ليقتل موسى ، لأنه جاءهم ببدع لم يعرفوه ، وفرعون يخشى أن يبدل موسى دين القوم ، ويظهر فى الأرض الفساد ﴿ **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾(١) .

إن هؤلاء الطغاة يرمون غيرهم بأدوائهم ، ويتهمون المصلحين بما فعلوه هم فى شعوبهم ، هؤلاء الطغاة يقفون فى وجه الحق دائماً لأنهم يعلمون أنه السلاح الذى يقضى على باطلهم ، ويحطم طغيانهم ، ويحرر المستعبدين من جبروتهم ويضىء الطريق للناس ، ليروا الحق ، ويعيشوا فى النور ، وينعموا بالحرية ـــ حرية العقيدة والقول والعمل ـــ ويتمتعوا بالعدالة ـــ عدالة السماء ـــ ومن أجل هذا كان الطغاة فى كل زمان ومكان أعداء للحق ، وكان الحق حيثما كان خصماً للطغاة .

لهذا كان لزاماً على القيادة الإسلامية القضاء على الطغاة المتجبرين ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون الناس من الدخول فى دين الله ، ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾(٢) .

ولا شك أن الناس ـــ إلا القليل ـــ يرهبون السلطة أكثر مما يرهبون الحق ، ويخافون من السلطان أشد مما يخافون من الله ، ولهذا كان لا بد من وجود سلطة تحرس الحق من عدوان الطغاة ، وكان لا بد من وجود سلطان

(١) سورة غافر ٢٦ .

(٢) سورة البقرة ١٩٣ .

يحمل الناس على الخوف من الله عز وجل وبذلك تستقيم أمور الناس ، وتستقر الأوضاع فى الأرض على وجهها القويم .

والحق عندنا هو الإسلام ، ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾[1] والسلطة هى الحكومة الرشيدة القائمة على أمر الله ، والسلطان هو الحاكم المسلم المنفذ لأحكام الله ، القائم بالعدل والقسط بين الناس جميعاً على السواء .

ولا يمكن أن يكون ذلك وفى الأرض حكام طغاة ظالمون يعبدون الناس لجبروتهم ، ويرهبونهم بظلمهم وطغيانهم فلا بد إذن من إقامة العدل والقضاء على الطغيان ، وتلك مهمة القيادة الرشيدة .

رابعاً :- إعداد الجيش :

إن إعداد الجيوش للقيام بالمهام الخطيرة الملقاة على عاتقها أمر حيوى بالنسبة لكل دولة أياً كانت تلك الدولة ، لأنه يحتاج إلى الاهتمام بالنواحى المختلفة المكونة لكل فرد من الجنود ، ولأن الإهمال فى أى جانب منها يؤدى إلى خلل فى أكبر ركن تعتمد عليه الدول فى حماية مبادئها ومقدساتها .

ولما كان الجيش هو الحصن الذى تتقى به الأمم أعداءها والسهم الذى ترمى به نحر من يعتدى عليها ، كان لا بد من تدعيم الحصن بكل ما يحتاج إليه ، وكان لا بد كذلك من إراشة السهم حتى يصيب حيث يسدد .

وإعداد الجيوش يحتاج إلى العناية الفائقة بكل معنويات الجيش ، كما يحتاج إلى العناية بتقوية أجسام الجنود وعقولهم وهذا يقتضى وضع برنامج تربوى للجيش الإسلامى ، يعتنى فيه بالجانب الروحى بقدر عنايته بالجانب الجسمى ، ويهتم فيه بالجانب الأخلاق بقدر اهتمامه بالتدريب العسكرى .

ولقد اضطلعت القيادة الإسلامية بهذه المهمة الخطيرة ووصلت فيها إلى الغاية التى تتطلع إليها القيادات المثالية فكان لها جيش لم تعرف الدنيا له نظيراً فى الشجاعة والتضحية والبسالة والإقدام .

ولقد كان للظروف التى نشأ فيها الجيش الإسلامى أثر كبير فى تكوين

---

(١) سورة يونس ٣٢ .

هذا الجيش ، كما كان للعناية الفائقة ، والتربية النادرة التى حرصت القيادة الإسلامية على توفيرها له ، دخل كبير فى تفوق هذا الجيش على أقرانه من جيوش الأمم التى عاصرته مع تفوقها عليه فى العدد والعدد ، وتوفر الإمكانيات وفرص التدريب .

إن الإسلام الذى أرسل الله عز وجل به رسله ،وختمهم بمحمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين حرص على نشر الحق بين الناس كما حرص على هدايتهم ، وتوصيل الخير لهم ، ولما كانت الدنيا ميدان تنافس بين قوى الحق والباطل وحلبة صراع بين الخير والشر كان لا بد من وجود قوة تحمى الحق وتنشره بين الناس ، وتقدم الخير لبنى الإنسان ، وتحميهم من اعتداء المعتدين ، وكانت هذه القوة هى الجيش .

من أجل هذا فرض الله الجهاد على القادرين من المسلمين فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، وكان فرض الجهاد على المسلمين هو المرسوم الأول بتكوين الجيش الإسلامى فى ظل القيادة الإسلامية الرشيدة .

عاش المسلمون فى مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً ، وهم عاكفون على دينهم يتلقونه من رسول الله ﷺ غضاً جديداً ، يزكون به أنفسهم ، ويحيون بنوره قلوبهم ، فكانوا يجتمعون حول رسول الله ، فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ، يعون كل كلمة تخرج من فم الرسول ، وينفذون كل أمر يصدر منه .

ولم يكد ﷺ يصدع بدعوته تنفيذاً لأمر الله ﴿ **فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين** ﴾[1] حتى عمت مكة موجة من السخط المتصاعد ، تفتقت عنه قلوب ضاقت بالرسالة ، فلم تستطع كتمانه ، وزاحت تصب جام غضبها على المسلمين ، وبخاصة المستضعفين منهم .

وسجل المسلمون صوراً من البطولة تضيق عن حصرها صفحات الكتب ، وتعجز عن توضيحها بلاغة الأدباء ، وأقلام الفصحاء .

وأخذ المسلمون يستبسلون فى الموقف من جانبين هامين :

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .

الأول : الصمود فى وجه الطغيان ، والترفع عن الانحناء أمام الطواغيت .

والثانى : الثبات على العقيدة ، وعدم الحيدة عنها مهما اشتدت قسوة العذاب ، وزادت مرارته .

فهذا بلال بن رباح رضى الله عنه يعرى من ثيابه ، ويسحب فى حر الظهيرة على بطحاء مكة ، وتحمل الحجارة الضخمة وتوضع على صدره ليرجع عن دينه ، فلم يزده ذلك إلا إيماناً وتثبيتا ، ويردد قولته المشهورة : أحد أحد .

وهذا ياسر أبو عمار رضى الله عنه يكوى بالنار ، وتغرز أسياخ الحديد فى لحمه حتى تنطفىء ، ويصب على رأسه الماء الحار فلا يصرفه ذلك عن دينه .

ثم يأتى دور سمية أول شهيدة فى الاسلام ، تعذب مع زوجها وابنها ، ثم تشد إلى فرسين ، يوجه أحدهما إلى جهة والآخر إلى جهة مختلفة ، فتشطر شطرين ، وتودع الحياة ثابتة على عقيدتها مستعلية على الكفر ، ساخرة من الكافرين .

وصبر المسلمون على هذا الأذى صبراً تجاوز الطاقة البشرية وتحملوا من العذاب ما لا تتحمله الرواس ، والمشركون يتمادون فى غيهم ، ولا يقلعون عن طغيانهم .

وذهب الصحابة إلى رسول الله ﷺ يستأذنونه فى مواجهة الكفار ، فيرد عليهم بقوله : « اصبروا فإنى لم أؤمر بقتال »[1] .

أحس المسلمون بكفاءتهم لصد العدوان ، وهم وإن كانوا لا يزالون قلة فى عددهم إلا أنهم يجدون فى إيمانهم ما يعوضهم عن كثرة أعدائهم ، وقلة عددهم .

ودخل أسد الله حمزة بن عبد المطلب فى الإسلام ، وأعقبه عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حوله من بيت الأرقم يمشون فى صفين متجهين إلى المسجد الشريف بين تكبير وتهليل ، ومنذئذ بدأ التحدى بين أولياء الله وأولياء الشيطان .

---

(١) فتح القدير جـ ٣ ص ٤٥٦ .

مشـروعية الجهـاد :

لم يكن القتال شيئاً جديداً على العرب ، فقد كانوا غارقين فيه إلى آذانهم ، وكانوا يشنونه لأتفه الأسباب وأحقرها ، وكانت غارات السلب والنهب لا تنقطع إلا بالقدر الذى يستجم فيه المتقاتلون ليستأنفوا القتال .

استغل الإسلام هذا الميل الذى طبع عليه العرب ولكنه لم يتركه لأهوائهم ، بل تناوله بالتهذيب والتنظيم ، شأنه فى ذلك شأنه فى العادات التى أقرها عند العرب .

لقد وضع الإسلام للقتال قواعد ثابتة لا يجوز لمسلم مهما كان أن يتعداها ، فحرم الحرب من أجل السلب والنهب ، واعتبرها اعتداء لا يليق بقوم ذوى عقيدة صحيحة ، ومبادىء سامية ، قال تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾(١) .

ومنع الحرب من أجل العداوات الشخصية ، والمثارات والعصبية والقومية ، واعتبرها قرينة للكفر ، قال ـــ ﷺ ـــ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »(٢) .

ثم شرع الحرب من أجل دفع الظلم وصد العدوان ، قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾(٣) .

وشرعها لتحطيم الطاغوت الذى يحول بين الناس وبين اعتناق مايريدون من العقائد الصحيحة ، والدخول فى الاسلام ، قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾(٤) .

وبهذا يتقرر أن الجهاد فى الاسلام له خطة واضحة ، ومنهاج قويم ، كما يتضح أن الجهاد ليس دفاعيا فقط ، كما يزعم كثير من الناس ، بل هو هجومى

---

(١) سورة البقرة ١٩٠ .
(٢) رواه مسلم جـ ١ ص ٥٨ .
(٣) سورة الحج ٣٩ .
(٤) سورة التوبة ٣٦ .

أيضا ، يبدأ به المسلمون من ظلمهم أو اعتدى عليهم ، كما يبدأون به من صد الناس عن دين الله ، ومنعهم من الدخول فيه .

ولقد قام المسلمون بالجهاد ، وأدوا هذه الفريضة على كل حال سواء كانت فى حالة الدفاع كما فى غزوتى أحد والخندق أو فى حالة الهجوم كما فى غزوة بدر وغزو الفرس والروم حيث اعتدى أهل مكة ، على المسلمين فعذبوهم واستحلوا أموالهم وتجاراتهم ، ووقف الأكاسرة ـــ ملوك الفرس ـــ والقياصرة ـــ ملوك الروم ـــ يرهبون الناس بسلطانهم ، ويصدونهم عن الدخول فى الاسلام ، أو حتى عن التفكير فيه .

وعندئذ جرد المسلمون الجيوش ، وسيروها إلى هؤلاء الطواغيت ليحطموا كبرياءهم ، ويزيلوا هذه العقبة من طريق الناس ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تحقق للناس الأمن ، وتزيل عنهم هذا الكابوس ، فانساب الإسلام إلى قلوبهم ، كما ينساب الماء إلى الأرض الميتة فأعاد إليهم إنسانيتهم التى فقدوها تحت وطأة الطغيان وحقق لهم حريتهم التى حرموها تحت نير الظلم ، وقد كانوا ـــ لولا الإسلام ـــ دمى لا عقول لهم ، وعبيداً لا يتحركون إلا حيث يشير سيدهم ، ولا يؤمنون إلا بما يؤمن به رؤساؤهم .

لهذا شرع الله عز وجل الجهاد ، وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، قام بها الجيش الإسلامى خير قيام فحرر الناس من عبودية الناس ، وأطلقهم من طغيان الجبابرة ، فرأوا النور بعد أن حرموه ، فهرعوا إلى الإسلام تحت حراسة الجيش الإسلامى ، وعاشوا آمنين على عقيدتهم فى رعايته .

كيف نكون الجيش الإسلامى ؟

لقد فرض الله الجهاد على هذه الأمة ، ولم يخص به قوماً دون قوم ، ولا فئة دون فئة ، وحتى الذين استثناهم من وجوب الجهاد عليهم ، لم يمنع من جواز اشتراكهم فى القتال إذا هم رغبوا فى ذلك ، وإنما منحهم حق القعود بلا إثم ولا جريرة .

أخرج البخارى عن يزيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه :

لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علىَّ فقال : يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـــ وكان أعمى ـــ فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾[1]

فكان نسق الآية بعد ذلك ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله** ﴾[2] .

ثم نزلت الآية الأخرى فبينت أولى الضرر المعذورين فى الجهاد فقال تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج** ﴾[3] وبهذا أصبح المعذورون هم : الأعمى والأعرج والمريض ، فإذا قعد هؤلاء عن الجهاد فلا إثم عليهم .

ومن مضمون الآية نفهم أن كل أفراد الأمة غير المعذورين جنود فى الجيش الإسلامى ، مكلفون بالخروج معه إذا غزا أو خرج لصد العدو .

وإذا أراد أحد المعذورين الاشتراك فى الجهاد فللقائد أن يقبل منه أو يرده ، مقدراً فى ذلك ظروف المسلمين ، ومصلحة الجيش ففى غزوة أحد جاء عمرو بن الجموح رضى الله عنه وكان رجلاً كبير السن شديد العرج ، وله أربعة أولاد كلهم يجاهدون فى سبيل الله ، فلما أراد الخروج منعه أولاده ، وقالوا : نحن نكفيك ، فذهب عمرو إلى رسول الله وأخبره الخبر ، وقال : ائذن لى يا رسول الله ، فإنى أرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنة ، فأذن له ﷺ واستشهد رضى الله عنه فى تلك الغزوة ، وقال ﷺ : « رحم الله عمرو ابن الجموح ، لقد رأيته يطأ بعرجته الجنة »[4]

وعلى هذا يكون الجهاد فريضة على الأمة الإسلامية كلها بالقدر الذى يطيقه كل فرد منهم ، ما عدا هؤلاء المعذورين فالجهاد مباح فى حقهم وليس فرضاً عليهم .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٤٥ .

(٢) سورة النساء ٩٥ .

(٣) سورة الفتح ١٧ .

(٤) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥٥ بتصرف .

أ ــ دور الشباب :

لقد كان للشباب دور مهم وفعال فى تكوين الجيش الإسلامى ، والشباب هم عمد الجيوش ودعائمها ، وعلى أكتافهم يقوم العمل الجاد المثمر فى الحرب والسلم ، فلا غرو أن يتكون الجيش الإسلامى من الشباب فى الدرجة الأولى ، وكان من الطبيعى أن يكون الشباب هم الأغلبية الساحقة فى هذا الجيش الفتى .

فمصعب بن عمير رضى الله عنه كان لا يزال فتى يوم صرع فى غزوة أحد ، وسعد بن أبى وقاص كان يناهز الثلاثين يوم قال له رسول الله ﷺ ارم فداك أبى وأمى ، وعلى بن أبى طالب ، كان لا يتخطى ذلك إلا قليلا يوم تحدى مرحباً فى خيبر ، وغيرهم وغيرهم من الشباب الذين حملوا العبء الأعظم فى الجيش .

وهذان ابنا عفراء ــ معاذ ومعوذ ــ شابان حدثان يثبتان جدارة فى الحرب ، وشجاعة نادرة يوم النزال ، وكانا يوم بدر من ألمع المحاربين روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : « إنى لفى الصف يوم بدر إذا التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه يا عم أرنى أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخى ، وما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله . قال : فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء »(١)

هكذا جيش الإسلام الشباب ، وخلق منهم رجالاً أكفاء لكل ما ينتدبهم له ، وهكذا كان الشباب فى الجيش الإسلامى لا تهولهم المعارك ، ولا تخيفهم الدماء ، يتنافسون الخيرات ويتسابقون إلى جنة عرضها الأرض والسماوات ، وميادين الجهاد فى سبيل الله أفسح مجالاً لإدراك ما عند الله من النعيم .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣٠٧ .

ب ــ دور الصبيـان :

لم يكن التنافس على الموت مقتصراً على الشباب ، ولعل للشباب حين يتنافس على الموت تبريراً قوياً فالشباب ممتلىء حماسة وقوة ، يتدفق فى عروقه أمل يغريه بالإقدام ليجد أمامه ما أعده الله له من عظيم الأجر وكريم المثوبة .

أما الصبيان الصغار الذين لم يتجاوزوا الحلم ، فإنهم عادة يخافون من الدماء ، ويفزعون من سماع القتال والقتل فما بالنا نراهم هنا ، وفى ميدان المعركة الملتهبة تتوق نفوسهم لرؤية الدماء ، وتتحرق قلوبهم شوقاً إلى الموت .

لم يكن إذن حماس الشباب هو الدافع إلى المغامرة ، ولم يكن الطيش وعدم التقدير هما السبب فى خوض الشباب لهذه المعارك بل كان هناك سبب أهم من هذا كله ، ذلكم هو الإيمان العميق الذى استقر فى قلوب المسلمين ــ صغيرهم وكبيرهم ــ فدعاهم إلى الحرص على إدراك وعد الله لمن يقاتل فى سبيله ثم يقتل ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾[1]

لهذا رأينا الصغار الذين لم يبلغوا بعد سن التجنيد يسمعون أن رسول الله ﷺ يعد جيشاً لملاقاة أعداء الله ، فيسرعون إلى الميدان ، وينتظرون دورهم فى التجنيد .

وهناك فى الميدان نرى عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وأبا سعيد الخدرى ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وقف الجميع ينتظرون رأى القائد فيهم ، ويتطلعون أن يكونوا جنوداً فى هذه المعركة .

وأشرف القائد العظيم على الجيش المتطلع لملاقاة عدوه ورأى الصغار ينتظرون أوامره ليكونوا فى عداد المقاتلين فرد جماعة منهم لصغرهم ، وأقر من

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ ــ ١٧١ .

كان منهم مطيقاً .

وكان ممن أقرهم رسول الله ﷺ البراء بر عازب وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج[1]

والمشهد الرائع هنا الذى يستولى على العقول ، ويأخذ بالقلوب ويثبت الرجولة المبكرة فى هؤلاء الصبيان الذين رباهم الإسلام مشهد سمرة بن جندب ورافع بن خديج .

سمع رسول الله ﷺ أن رافع بن خديج رام ماهر فى الرمى فأجازه ، فغضب سمرة بن جندب ، وقال : أيجيز رسول الله رافعاً ويردنى ؟ أنا والله أقوى من رافع ، أنا أصرعه .

وعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال : تصارعا فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه ﷺ واشتركا فى القتال[2] .

هكذا كان شباب الإسلام ، وهكذا كان صبيانه يتنافسون على الموت ، ويبكون لحرمانهم من الجهاد ، ويتصارعون ليثبت كل منهم قوته ليجيزه القائد فى عداد المقاتلين .

لم يكن تنافسهم على المناصب والدرجات ، ولم يكن بكاؤهم وغضبهم لتجنيدهم فى الجيش ، وأخذهم إلى ميادين القتال ، ولكن ليكتبوا بدمائهم صفحات التاريخ الإسلامى المجيد الذى نتطاول به على الدنيا ، ونفخر به على الأجيال .

جـ ــ دور الشيوخ :

لم يتقاعس الشيوخ من المسلمين عن الاشتراك فى القتال طلباً للراحة ، ولم يقنعوا بما أباحه الله لهم من القعود رغبة فى الحياة ، ولكنهم بذلوا شيخوختهم ، وضحوا براحتهم وانطلقوا من معاقلهم لينضموا إلى الجيش المحارب .

---

(١) مختصرة سيرة الرسول ص ٢٤٤ .

(٢) السيرة الحلبية جـ ٢ ص٢٣٣ .

روى الحلبى أن رسول الله ﷺ خلف اليمان ـــ والد حذيفة ـــ وثابت ابن وقش فى الآطام من النساء والصبيان لأنهما كانا شيخين كبيرين ، فقال أحدهما لصاحبه : لا أبالك ما ننتظر ؟ فوالله إن بقي لواحد منا فى عمره إلا طمء حمار ـــ أى شيء يسير من العمر ـــ أفلا نأخذ أسيافنا ، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة .

فأخذا سيفيهما ، ثم خرجا حتى دخلا فى الناس من جهة المشركين ، ولم يعلم المسلمون بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولم يعرفوه[1] .

هذه صورة رائعة ونادرة فى التاريخ ، قوم عذرهم الله تعالى ورفع عنهم فريضة الجهاد والتضحية بالنفس ، وتركهم رسول الله ﷺ فى بيوتهم ، فلم ينكر عليهم قعودهم ، ولم يستنفرهم ليقاتلوا معه ، ومع ذلك أبت نفوسهم أن تخلد إلى الراحة واشمأزت قلوبهم أن يتركوا مع النساء والصبيان .

فقال أحدهما لصاحبه : أفلا نأخذ أسيافنا ، ونلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة ؟ ؟

ثم لا يقف الرجلان عند حد الكلام ، بل يحمل كل منهما سيفه ويمضى إلى عزمه ، مستقبلاً الموت بصدره ، فيرزقهما الله الشهادة وهكذا صدقا الله فصدقهما الله .

د ـــ وحتى النســـاء :

لم تكن المرأة بمعزل عن الأحداث التى تهم المسلمين ، وتتعلق بمصالح الدولة العامة ، ولكنها أسهمت فى كل ميدان تستطيع أن تؤدى فيه دوراً بنصيب كبير .

ولم يكن الإسلام قط عقبة فى وجه النساء المسلمات تحول بينهن وبين الإسهام فيما يقدرن عليه من الواجبات ولقد أسهمت المرأة المسلمة فى بناء الدولة فى السلم كما أسهمت فى بنائها فى الحرب ، ولقد اهتمت بمداواة الجرحى

---

(١) السيرة الحلبية ص ٢٥٦ .

والإشراف على المرضى بقدر اهتمامها بتربية أبنائها وحقوق زوجها ، وكانت تحمل الماء على ظهرها إلى ميدان القتال لتسقى المحاربين كما كانت تحمله إلى بيتها لتقوم بشئونه من طبخ وري وتنظيف .

ولم يبخسها الإسلام حقاً ، ولم يهضمها شيئاً ، بل أعطاها جزاءها كاملاً غير منقوص مقابل كل عمل صالح تقدمه فى البيت أم فى الميدان قال تعالى : ﴿ **ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾(٢) .

ولم تكن مهمة المرأة المسلمة فى الميدان قاصرة على مداواة الجرحى ، ومعالجة المرضى ، وسقى الظماء ، بل تعدت إلى حمل السلاح والقتال مع المقاتلين .

هذه أم أيمن رضى الله عنها تواجه فى المدينة رجالاً من الذين تولوا يوم اللقاء ، فأخذت تحثو التراب فى وجوههم ، وتقول لبعضهم : « هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك »(٣) .

ولم تقف أم أيمن عند هذا الحد بل ذهبت بنفسها إلى ميدان القتال ، وشوهدت وهى تتجول بين الصفوف تتفقد الجرحى وتسقيهم .

يقول الحلبى : « إن أم أيمن كانت فى الجيش تسقى الجرحى وإن حباب ابن العرقة رمى بسهم ، فأصاب أم أيمن ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله فى الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فدفع إلى سعد سهماً لا نصل له وقال : ارم به ، فوقع السهم فى نحر حباب ، فوقع مستلقياً حتى بدت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه ، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته »(٤) .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٠ .
(٢) سورة النساء الآية ١٢٤ .
(٣) السيرة الحلية جـ ٢ ص ٢٤٠ .
(٤) نفس المرجع والصفحة .

وهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية تشهد المعركة يوم أحد ، فتسقى الناس فى أول النهار ، وتقاتل آخره ، يقول ابن هشام : « وقاتلت أم عمارة ، نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد »[1]

وذكر سعيد بن أبى زيد الأنصارى : أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول : دخلت على أم عمارة ، فقلت لها : يا خالة ، أخبرينى خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى .

قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة ، أقمأه الله !

لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان[2] .

وقد جرحت رضى الله عنها اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح ، وضربة بسيف[3] .

وروى مسلم أن عائشة وأم سليم رضى الله عنهما كانا يسقيان الناس يفرغان من القرب فى أفواه القوم[4] .

وروى الحلبى أن عائشة رضى الله عنها خرجت فى نسوة يستروحن خبر الجيش ، فقابلت هند بنت حرام رضى الله عنها فقالت لها عائشة : جاء خبر الجيش ؟

---

(١) سيرة بن هشام جـ ٣ ص ٨١ .
(٢) سيرة بن هشام جـ ٣ ص ٨١ــ ٨٢ .
(٣) السيرة الحلية جـ ٢ ص ٢٢ .
(٤) مختصر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٠ .

فقالت : أما رسول الله ﷺ فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

ثم قالت لها عائشة : فمن هؤلاء ؟؟

قالت : أخى عبد الله ، وابنى خلاد ، وزوجى عمرو بن الجموح ، وكانت قد حملتهم على بعير بعد استشهادهم تريد أن تدفنهم فى المدينة ، فبرك بهم البعير ، وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك ، وان وجه إلى أرض أحد نزع ، فرجعت إلى النبى ــ ﷺ ــ وأخبرته ، فقال ان الجمل مأمور ، فقبرهم بأحد ، وقال ــ ﷺ ــ : ياهند مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن (١) .

ولم تكن أم سليم ــ رضى الله عنها ــ بأقل حماسا من أم عمارة ، وأم أيمن وغيرهما من نساء المسلمين فكانت تخرج مع زوجها أبى طلحة حاملة سلاحها لتدافع به عن نفسها .

روى ابن هشام قال : قال ابن اسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر ، أن رسول الله ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة ، وهى حازمة وسطها ببردها ، وانها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، ومعها جمل أبى طلحة وقد خشيت أن يعزها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله ﷺ : أم سليم ؟ قلت : نعم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ أو يكفى الله ياأم سليم . قال : ومعها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ماهذا الخنجر معك ياأم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، ان دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، قال : يقول أبو طلحة : ألا تسمع يارسول الله ماتقول أم سليم الغميصاء ــ أى التى بعينها رمص ــ (٢) .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٤٦ .

ولم تكتف أم عمارة نسيبة ـــ رضى الله عنها ـــ بالقتال مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ بل خرجت فى حروب الردة تقاتل مع جيش المسلمين ضد مسيلمة الكذاب ، ولم تهدأ حتى تيقنت من قتله .

يقول الحلبى : فعنها ـــ أم عمارة ـــ رضى الله عنها قالت يوم اليمامة : تقطعت يداى وأنا أريد قتل مسيلمة ، وما كان لى ناهية ـــ أى مانعة ـــ حتى رأيت الخبيث مقتولاً ، وإذا ابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلته ؟ قال : نعم ، فسجدت لله شكراً[1] .

ومن هذا العرض السريع لهذه المقتطفات من السيرة النبوية العطرة ، نتبين أن الأمة الإسلامية كلها كانت معبأة للجهاد فى سبيل الله ، وأن كل فرد كان جندياً فى الجيش الإسلامى متأهباً للقتال فى أية لحظة من ليل أو نهار .

فلم يكد المسلمون يسمعون الصيحة ، ولم يكد منادى الجهاد ينادى : يا خيل الله اركبى ، حتى يهب المسلمون من كل مكان ميممين صوب المعركة ، ولو كانوا بين أحضان نسائهم .

وليس أدل على ذلك مما حدث من حنظلة الغسيل رضى الله عنه وهو حنظلة بن عامر ، وكان قد تزوج من جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، واستأذن رسول الله أن يدخل بها فى ليلة غزوة أحد ، فأذن له ﷺ فلما صلى الصبح وعاد تحلقت به ، فأجنب منها ، ثم نادى منادى الجهاد ، فخرج مع المجاهدين منبياً الصيحة دون أن يغتسل ، وقاتل قتالاً شديداً حتى استشهد رضى الله عنه .

وفيه يقول ﷺ : « رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة »[2] .

ولما سئلت زوجه جميلة قالت : خرج جنباً ، فقال ﷺ : لذلك غسلته الملائكة[3] .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٤٣ .

(٢ ، ٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٥٤ .

تدريب الجيش

لم يكن لهذا الجيش المتأهب للقتال فى أية لحظة أن يعيش هملاً ، ولم يكن لهذه الأمة التى جيشت نفسها للدفاع عن هذا الدين أن تحيا حياة العبث والخمول ، ولم يكن للقائد العظيم ﷺ أن يركن إلى الدعة والراحة ، وقد أراحه الله بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد عناء طويل صبر عليه هو وأصحابه بمكة المكرمة .

بل كان على الجيش أن يظل على ثقة بقيادته ، وأن يكون وثيق الصلة بالحياة العسكرية الجادة التى وهب لها نفسه وكان على الأمة أن تحيا حياة الجد لتواجه المشكلات العويصة التى تنتظرها ، وكان على القيادة أن تستمر فى تدريب الجيش والأخذ بيده إلى ميادين الكفاح والجهاد ليظل على علاقة وطيدة بالغاية التى خلق من أجلها .

كان على الجيش أن يظل يقظاً حريصاً حتى لا يباغت بأمر لا يحبه ، أو يفاجأ بحرب لم يكن يتوقعها ، وكان على الأمة كلها أن ترعى هذا الجيش بقلوبها ، وتحيطه بعنايتها ، وتمده بأفلاذ أكبادها وثمرات أفئدتها ، وكان على القيادة أن تستغل يقظة الجيش وحرصه ، فلا تتركه يتهاون أو يتبلد ، كما يستغل رعاية الأمة له ، وعنايتها به ، وتقيم صرح التعاون بين الجيش والأمة .

كان على الجيش أن يحدد غايته ، ويدرس الوسائل المؤدية إليها ، وعلى الأمة أن تعرف المكاسب التى تجنيها من تقوية الجيش وإمداده بالجند والمال ، وكان على القيادة أن توضح كل ذلك بدقة وعناية .

ولقد فعل رسول الله ﷺ فحدد الغاية « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وبين الثمرة « لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة »[2] ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من**

---

(١) مختصر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٤٨ .

(٢) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٦٢٧ .

فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾[1] وبين الوسائل المؤدية إلى ذلك بقوله : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله »[2] .

كذلك بين ﷺ واجب الأمة نحو الجيش وحثها على إمداده بالجند والمال بقوله تعالى : **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾**[3] **﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾**[4] .

وبين أن الأمة إنما تكون قوية بجيشها عزيزة بقدرته على الدفاع عنها ، ذليلة بتقاعسه وعجزه « وما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله إلا سلط الله عليهم ذلاً لا ينزعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم »[5] .

هكذا كانت القيادة فى الإسلام حريصة على تدريب الجيش وقوته ، وهكذا وقفت الأمة الإسلامية من خلف قيادتها تشد أزرها ، وتمدها بتأييدها ، وهكذا كان الجيش الإسلامى خاضعاً لقيادته مؤتمراً بأوامرها ، واثقاً من إخلاصها وحسن تدبيرها .

وليس المراد بالتدريب صف الجنود لتعليمهم التشكيلات العسكرية ، وأخذهم بالتوجيهات الإدارية ، وتعويدهم المشية النظامية ، ليس المراد هذا ، لأنه لم يكن من مقتضيات الحياة العسكرية فى ذلك لوقت ، وإنما المقصود هو العناية بتقوية الجند جسمياً ليتحملوا الشدائد ، وعقلياً ليجيدوا التخطيط ، وروحياً لتتحسن صلتهم بالله ، وليعظم توكلهم عليه ، ولنغرس فى قلوبهم أن النصر من عند الله ، وأن العدد والعتاد ، والتدريب والاستعداد كلها وسائل فقط توصل إلى النصر بمشيئة الله عز جل .

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ ــ ١٧١ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة .

(٣) سورة التوبة الآية ١١١ .

(٤) سورة الصف الآيتان ١٠ ــ ١١ .

(٥) رواه ابن حبان ، والطبرانى والحديث هنا مروى بالمعنى .

ولقد تولت القيادة الإسلامية تدريب الجيش على هذا النحو ، فحققت الغاية المنشودة ، فكان الجيش الإسلامى أقوى الجيوش فى حينه ، كما كان أعظمها صبراً ، وأشدها تحملاً وأدقها تخطيطاً ، وأكثرها ثقة بالله جل شأنه .

والمقصود بالجانب الجسمى هو اللياقة البدنية كما تعرف الآن ، إذ بغير اللياقة البدنية لا يستطيع الجندى القيام بالمهام التى يكلف بها ، ولهذا أعفى الله عز وجل أولى الضر من التجنيد فقال تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾[1] .

والمقصود بالجانب العقلى هو تنمية المواهب العقلية فى الجنود حتى لا يخدع من عدوه أولاً ، وحتى تتكون لديه القدرة على إحباط مخططات أعدائه ثانياً ، ووضع الخطط اللازمة لكسب المعركة ثالثاً ، وإلى هذا يشير ﷺ بقوله الكريم : « الحرب خدعة »[2] .

والمقصود بالجانب الروحى هو ربط الجنود بالله تعالى وتقوية الصلة به سبحانه وتوثيق الاعتقاد بنصره لعباده المؤمنين ، وإمداده لهم بالعون والتأييد ، وبذلك ترتفع معنويات الجنود ، ويستبسلون فى الجهاد ، ويظلون على صلتهم بربهم حتى فى أثناء المعركة ، وعندئذ يستحقون نصر الله ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[3] .

وبتربية هذه الجوانب الثلاثة فى الجنود نكون حقاً قد أعددناهم إعداداً ممتازاً يستطيعون به ـــ بعد توفيق الله ـــ عز وجل أن يحرزوا النصر ، ويقهروا العدو ، ويتغلبوا على العقبات .

أ ـــ التدريب الجســـمى :

لقد اهتمت القيادة الإسلامية بتدريب الجيش تدريباً جسمياً ، لأنها تعرف أن اللياقة البدنية ، والقوة الجسمية ذات أهمية كبيرة فى حياة الجيوش ،

---

(١) سورة الفتح الآية ١٧ .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

لهذا أبرزت معالمها ، ورسمت الخطط المؤدية إلى تحصيلها ، فأمرت بتعليم الرمى ، وحذرت من إهماله أو نسيانه وحثت على ركوب الخيل وتعلم السباحة ، وأقامت مباريات السباق بين الجنود مشاة وركبانا ، وأقرت المصارعة كمبدأ عام لإظهار القوة وتحصيلها .

أما الرمى فيقول فيه ﷺ : « من علم الرمى ثم تركه ، فليس منا »(١) .

ومر ﷺ على نفر ينتضلون فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك الآخرون عن الرمى ، فقال رسول الله : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال ﷺ : ارموا وأنا معكم كلكم »(٢) .

ولما نزلت الآية الكريمة ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ صعد ﷺ المنبر ، وتلا الآية ، ثم قال : ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى(٣) .

ولا شك أن الرمى يقتضى من الرامى أن يكون حاد البصر حتى يستطيع تحديد هدفه ، قوى الساعد ، حتى يمكنه تسديد رميه ، شجاعاً حتى يستطيع مواجهة أعدائه وبهذا يكون تعلم الرمى تدريباً لجميع أعضاء الجسم وتقوية لعضلاته .

ولقد كان ﷺ حريصاً على أن يظهر المسلمون بالقوة التى ترهب أعداءهم ، حتى إنه فى عمرة القضاء لما قال المشركون : إن أصحاب محمد أنهكتهم حمى يثرب ، وسمع ﷺ مقالتهم ، خشى إن هو طاف مع أصحابه فى خشوع واطمئنان أن يستقر هذا المعنى فى نفوسهم ، ويجرئهم على المسلمين ، فأمر أصحابه أن يخرجوا أذرعتهم اليمنى من الأردية ، ويجمعوا طرفى الرداء على أكتافهم اليسرى ، ويرملوا أى يقاربوا بين الخطى مع هزة عنيفة فى الجسم ، وقال ﷺ : « رحم الله امرأ أرى القوم قوة من نفسه »(٤) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى .

(٣) تفسير البيضاوى للآية وكذلك الشوكانى وكذلك جاء فى صحيح مسلم .

(٤) الحديث مروى بالمعنى وأصله فى سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٧١ .

وأما ركوب الخيل فإنه فروسية ومهارة يكسب صاحبه قوة ورهبة ، وتمكن الفارس من توجيه المعركة إلى صفه بنجاح ، فيحرز النصر ، وينزل الهزائم بأعدائه ، لهذا كان ﷺ يأمر به ، حيث يقول : « فارموا واركبوا »[1] .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « علموا أولادكم السباحة والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » .

وكان ﷺ ينهى عن اللهو ، ويحذر منه ، ويستثنى ثلاثاً : « تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته لزوجته ولهوه بأسهمه »[2] .

والسباحة عامل مهم من عوامل تقوية الجيش ، وبخاصة فى المعارك البحرية ، ولقد خاضها المسلمون كثيراً وبنجاح باهر ، وكان لهم أسطول قوى فى عهد بنى أمية ، هزموا به الروم فى معركة ذات الصوارى ، وفتحوا به قبرص ، وحاصروا القسطنطينية ، واستولوا على جزر الروم .

وفى عهد الأغالبة فتحوا أقريطش « كريت » واستولوا على صقلية ، وهاجموا أوستيا ميناء روما حتى إن البابا يوحنا الثامن رأى إنقاذ روما بدفع الجزية لمدة عامين للأغالبة كما احتل الأسطول العربى فى الأندلس ساحل بروفانس جنوب فرنسا وجعلها قاعدة هامة لمهاجمة مدن نهر الراين .

وبهذا أثبت الجيش الإسلامى مهارة فائقة ومبكرة فى خوض المعارك البحرية مما أرهب أعداءهم ، واضطر ملوك وأمراء الدول الأوربية إلى الاتصال بالخلفاء يطلبون المهادنة وكف الغارات عن بلادهم[3] .

ولقد أصبحت السباحة من أهم التدريبات التى تعنى بها الجيوش فى العصر الحديث ، وجعلوا لها فرقاً خاصة تعرف باسم « الضفادع البشرية » وهذه الفرق تقوم بدور هام وخطير فى إحراز النصر وإنزال الهزائم بالأعداء .

---

(١) رواه أبو داود والنسائى .

(٢) رواه أصحاب السنن .

(٣) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط للدكتور العدوى .

وعندما يأمر الإسلام بتعلم الرمى وإجادته ، وركوب الخيل والمهارة فيه لا يقصد الوقوف عند حد الرمى بالسهم ، والاكتفاء بتعلم ركوب الخيل ، بل يقصد تعلم الرمى مطلقاً بالمسدس أو البندقية وبالمدفع والصاروخ ، وأن نتطور مع الزمان ، ولا نقف لنتفرج وعدونا يخترع كل يوم الجديد ، ويتفوق علينا بالنار والحديد .

كما أن المقصود بركوب الخيل ركوب كل ما من شأنه أن يحقق التفوق على الأعداء كركوب السيارات والمصفحات والدبابات والطائرات إلى غير ذلك ، والوثب على الخيل ومن فوقها رمز واضح لفرق المظليين ، ومهمتهم العظيمة التى يضطلعون بها .

ولقد كان ﷺ يقيم مباريات للسباق بين أصحابه ، تارة على الخيل والجمال ، وتارة على الأقدام .

ففى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل فأرسلت التى أضمرت منها ، وأمدها الحفياء إلى ثنية الوداع ، والتى لم تضمر أمدها ثنية الوداع إلى مسجد بنى رزيق »(١) .

قال البخارى : قال سفيان : من الحفياء إلى ثنية الوداع خمسة أميال أو ستة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بنى رزيق ميل .

وفى البخارى أيضاً : كانت العضباء ناقة رسول الله ﷺ لا تسبق فجاء أعرابى على قعود له فسابقها فسبقها الأعرابى ، وكأن ذلك شق على أصحاب النبى ﷺ فقال : « حق على الله ألا يرتفع شىء إلا وضعه »(٢) .

وأما المسابقة على الأقدام فقد فعلها ﷺ بنفسه فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « سابقنى النبى ﷺ فسبقته ، فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك »(٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح البخارى .

(٣) مسند الإمام أحمد .

كذلك تسابق الصحابة رضوان الله عليهم بين يديه ، فعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال :(بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبدا ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ فقلت : أما تكرم كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ذرنى أسابق الرجل ، فقال : إن شئت ، فسبقته إلى المدينة »[1] .

وأقر الإسلام المصارعة ، وباشرها ﷺ بنفسه أيضاً ، فقد صارع ركانة ، وكان رجلاً قوياً شديداً فصرعه النبى ﷺ وقيل إن ذلك كان سبب إسلامه[2] .

قال أبو داود : حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ كان بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة بن يزيد ومعه أعنز له ، فقال : يا محمد هل لك أن تصارعنى ؟ فقال : ما تسبقنى ؟ فقال : شاة من غنم .

فصارعه فصرعه ، فأخذ شاة ، فقال ركانة : فهل لك فى العودة ؟ فقال : ما تسبقنى ؟ قال : أخرى . ذكر ذلك مراراً .

فقال يا محمد ، والله ما وضع أحد جنبى إلى الأرض ، وما أنت بالذى تصرعنى ، فأسلم ، ورد عليه رسول الله غنمه[3] .

وقال ابن القيم : قال أبو الشيخ الأصبهانى : حدثنا عبد الله ابن محمد بن زكريا أسنده إلى عبد الله بن الحارث ، قال : صارع النبى ﷺ أبا ركانة فى الجاهلية وكان شديداً فقال : شاة بشاة ، فصرعه النبى ﷺ فقال أبو ركانة : عاودنى فى أخرى ، فصرعه النبى ﷺ فقال : عاودنى فى أخرى ، فعاوده فصرعه النبى ﷺ فقال أبو ركانة : ماذا أقول لأهلى ؟ شاة أكلها الذئب ، وشاة نشزت ، فما أقول للثالثة ؟ فقال النبى ﷺ : « ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرمك ، خذ غنمك »[4] .

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) رسالة الفروسية الشرعية لابن القيم ص ٣ .
(٣) سنن أبى داود كتاب المراسيل .
(٤) رسالة الفروسية الشرعية ص ٣٣ .

ومن هذ نعلم أن الإسلام حرص على تربية الجنود تربية جسمية ، تضمن لهم أسباب القوة التى تردع أعداءهم ، وترهب من تحدثه نفسه بالوقوف فى طريقهم ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[1] .

ب ــ التدريب العقلى :

قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[2] أجمع المفسرون على أن أعظم خصال التكريم إنما هو العقل ، وبينوا سبب ذلك فى إسهاب ، والحقيقة أن العقل هو أثمن نعم الله على الإنسان ، وهو الميزة التى يستحق بها هذا التكريم وتلك المكانة الرفيعة ، لهذا اهتم الإسلام به ، ووضع له كل وسائل النمو والتزكية ، وحث الناس على ذلك وأمرهم به ، واستعمل فى ذلك وسائل متنوعة ، ليرتقى الإنسان إلى أعلى درجات الرق الحضارى ومن أهم الوسائل التى استعملها الإسلام لتنمية المواهب العقلية ما يلى :

١ ــ التأمل فى الكون .
٢ ــ التأمل فى النفس .
٣ ــ ضرب الأمثلة الحسية للمعقولات .

التأمل فى الكون :

الكون هو الكتاب المفتوح لكل متأمل يريد أن يستطلع أسرار الحقائق التى خفيت على الغافلين ، وهو الوسيلة التى يجد فيها العقل البشرى مسرحاً ومراحاً لجولاته التى لا تنتهى ، ولا تقف عند حد .

لهذا أمر الله عز وجل بالنظر والتأمل فى الآيات الكونية قال تعالى : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾[3] وهذا النظر يفتح للعقل آفاقاً رحبة تشبع نهمه ، حيث يجد دقة الإتقان فى تنظيم النجوم ومداراتها ، والكواكب

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ .
(٣) يونس ١٠١ .

وأفلاكها ، والأجواء المترامية وما تضمه بين جوانحها من السحب والطيور على اختلاف أشكالها وغرائب طبائعها ، وهنا يقف العقل وقفة المتأمل الفاحص والمدقق الباحث ، كيف يتجمع السحاب ويتراكم ، فيسقط المطر ؟ كيف تسبح هذه الطيور فى الجو صافات ويقبضن ؟ وكيف تخفض أجنحتها التى تريد الدوران إلى جهتها ؟ بل كيف تطأطىء ذيلها ، لتهدىء من سرعتها ، فتتمكن من الدوران ؟

إن هذا الإبداع فى تنظيم هذا الكون الرحب الممتد إلى ما وراء العقل ، الذى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾[1] وهذا التشييد والتنسيق الذى أحكمته قدرة الله عز وجل ووضحته الآيات البينات : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾[2] .

وهذه الدقة المتناهية فى تقدير الأفلاك ودورانها ، وتدبير منازلها وأبراجها الذى أبدعته حكمة الله تبارك وتعالى وبينته الآية المباركة : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلّا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[3] .

ولقد أدهشت هذه الدقة علماء الفلك فى العصر الحديث حتى عبر عنها أحدهم بقوله : « إننا لو أطلقنا ثلاث ذبابات : واحدة فى أمريكا والثانية فى أفريقيا والثالثة فى آسيا يكون احتمال اصطدام الذبابات الثلاث أقرب إلى العقل من احتمال اصطدام كوكبين فى الفضاء » .

ثم ينتقل النظر من السماء إلى الأرض ، فيتأمل ما فيها ومن عليها فينظر إلى الجبال كيف نصبت ؟ ووزعت هذا التوزيع المتكافىء على جهات الأرض المختلفة ، وفى هذا النسق العجيب ، وهذه الفجاج كيف شقت ؟ وكيف

---

(١) الذاريات ٤٧ .

(٢) الملك ٣ ــ ٥ .

(٣) يونس ٥ .

أصبحت سبلاً ممهدة يسلكها الناس فى ترحالهم وأسفارهم ؟ وهذه المياه كيف انسابت ، فأحيت موات الأرض ، وأخصبت النبات وسقت البهائم ، وأفادت الناس ، وهذه المزروعات كيف نمت واخضرت ؟ وكيف تلونت كل ثمرة منها بلونها الرائع الأخاذ ؟ وكيف حصلت كل ثمرة منها على طعمها الخاص بها ؟

وهذه الحيوانات ، وما توحى به أشكالها وأحجامها وطبائعها وغرائزها وكيفية تكاثرها ، وطرق تعاملها ، والصورة التى خلقت عليها ، كل هذا التأمل تلزمنا به الآيات الكريمات ويحثنا عليه الإسلام الحنيف ، يقول تعالى : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾**(١) .

إن هذا التأمل فى أسرار الكون وعجائبه ، ليطبع النفس على الابتكار ويفتق العقل عن كل عجيب وغريب ، ويوحى للإنسان بالإبداع والاختراع .

ولقد حقق المسلمون الأولون بهذا التأمل وذلك النظر ، وفى وقت مبكر من حياة الدولة الإسلامية ما لم تستطع العقول إدراكه فى حينه ، وما استطاعت أن تصل إليه إلا فى وقت متأخر فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، وتاريخ العلوم يثبت ذلك للمسلمين بكل اعتزاز وفخار(٢) .

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالعقل البشرى ، وحرصه على تنميته وتطويره ، وحثه على أعماله وعدم تعطيله ، أن هدد رسول الله ﷺ كل من يمر بآيات الكون ، ولم يحاول الاستفادة منها والنظر إليها والتفكير فيها ، ولما نزل قوله تعالى : **﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾**(٣) عندئذ قال ﷺ : « ويل لمن يقرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها »(٤) .

---

(١) الغاشية ١٧ ــ ٢٠ .

(٢) راجع كتاب العلم عند العرب للكاتب الإيطالى الدوميلى .

(٣) آل عمران ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٤) فتح القدير جـ ١ ص ٤١٢ .

التـأمل فى النفس :

والنفس البشرية هى المجال الطبيعى للتفكير الإنسانى ، ولقد وهبنا الله العقل لنفكر به وندرك وإذا كنا نفكر به فيما حولنا فأولى بنا أن نفكر به فى أنفسنا ، فى خلقنا ، فيما تنطوى عليه طبائعنا وغرائزنا ، وفيما يحتويه هذا الجسم من عجائب وأسرار ، إن الإنسان المتأمل ليندهش ويحار ، وهو يرى بعينه هذه الأعضاء التى تكون منها جسمه ، كيف توزعت هذا التوزيع الدقيق ، بحيث لو وضع عضو مكان عضو فقد وظيفته وقيمته ، فالعين لا يمكن أن تحل محل الأذن ، والأنف يستحيل أن يكون يداً أو رجلاً .

ثم هذه الأجهزة الداخلية : الجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز التناسلى وغيرها من الأجهزة التى تسير بدقة تدل على عظمة الخالق المبدع سبحانه وتعالى كيف تؤدى هذه الأجهزة وظائفها ؟ .وكيف رتبت هذا الترتيب فى هذا الحيز من جسم الإنسان مع كثرتها وتعدد مهماتها ؟ ومن الذى أوحى إلى الجهاز العصبى أن يترأس كل هذه الأجهزة ويسيطر عليها ، فلا تعمل عملاً إلا بإشارة منه .

ثم هذه الروح تلك العجيبة التى لا يزال العالم رغم هذا التقدم العلمى مبهور الأنفاس يلهث دائباً ليقف على كنهها ، فأعجزته الحيلة وعاد حتى دون أن يجد خفى حنين يوارى بهما إفلاسه .

يقول المرحوم سيد قطب : « كل فرد من هذا الجنس عالم وحده ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله فى صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور ، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا فى شكله وملامحه ، ولا فى عقله ومداركه ،ولا فى روحه ومشاعره ولا فى صورة الكون كما هى فى حسه وتصوره ، ففى هذا المتحف الإلهى العجيب الذى يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر ، يمر من خلالها الوجود كله فى صورة كذلك لا تتكرر كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى فى هذه الأرض فى جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشرى مكشوفة البصر ، تراه العيون :

﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟** ﴾ وما تراه العين من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون »[1] .

إن الإنسان ليندهش فعلاً وهو يقف أمام هذه الأسرار يحسها فى نفسه ، ويلمس دقتها فى تصرفاته ، ويشعر بها ماثلة أمام بصره فى كل نفس من أنفاسه ، فلا يملك حينئذ إلا أن يخر ساجداً لعظمة المبدع ، ويتوصل عن طريق هذا التأمل إلى التوحيد الخالص لله جل علاه فيمحض طاعته له ، ويخلص له فى كل أموره ، ويوجه وجهه إليه ، ويسلم أمره له ، فيرضى بقضائه وقدره ويقف عند أمره ونهيه ، وتلك هى العبودية المخلصة ، وتلك هى الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان .

ولهذا حثنا سبحانه على التأمل فى النفس لإدراك تلك الأسرار أو بعضها ، فقال عز من قائل : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[2] .

ضرب الأمثلة الحسية للمعقولات :

من المعلوم أن هناك أموراً عقلية لا يستطيع الإنسان إدراكها لأول وهلة ، قد يكون ذلك لقصور فى العقل البشرى ، وقد يكون ذلك ، لأن الأمور المتحدث عنها أمور لا تدخل تحت إدراك الحواس وهى المعروفة بالأمور الغيبية .

إن عدم إدراك هذه الأمور لأحد السببين السابقين لا يبرر مطلقاً تجاهلها ، وعدم التكلم عنها ، بل يجب على المربى تقريب هذه الأمور إلى عقل الإنسان حتى يتمكن من تصورها ، وذلك إنما يكون بضرب المثل المحسوسة المشاهدة لهذه الأمور العقلية الصرف .

ولا شك أن العقل عندما يدرك هذه المحسوسات ويتأملها يدرك إمكانية تصور هذه الأمور المغيبة ، كما يدرك أنها أمور جائزة الحصول ، ولا مانع من وقوعها ، عندئذ يتفتق الذهن لإدراك معقولات لم يكن له أن يتصورها ،

---

(١) فى ظلال القرآن تفسير الآية .
(٢) الذاريات ٢١ .

لولا ضرب هذه الأمثلة الحسية وبذلك يحصل العقل معلومات جديدة تزيد فى نموه ، وتؤهله للوظيفة التى خلق من أجلها .

أمثـــلة :

من ذلك بيان مكانة الرسول ﷺ ومنزلته من الرسل السابقين له صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

لو أردنا أن نوضح ذلك بقولنا : إنها مكانة رفيعة ، ومرتبة سامقة ، ومنزلة لا تتم الرسالات إلا بها لما أوضحنا المقصود ولم نبلغ بقولنا المراد ، ولذلك أضرب رسول الله ﷺ عن ذلك كله ـــ وهو الذى أوتى جوامع الكلم ـــ وضرب لنا مثلاً أدركنا عن طريقه تلك المكانة من غير معاناة ولا كد فكر فقال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

عندئذ يدرك العقل مكانته ﷺ من الأنبياء قبله من غير عناء ، ولا تعب ، حيث يرى أمامه قصراً شامخاً رائعاً جميلاً ، تنقصه لبنة ليتم ويبهر ، فإذا وضعت هذه اللبنة فى مكانها لا شك أنه يزداد حسناً وبهاء ، ويتم رونقه ، وتظهر أبهته .

ومن ذلك البعث والنشور ، وإخراج الناس أحياء من القبور بعد موت طال أمده ، وبعد زمنه ، فالعقل البشرى يعجز عن تصور هذه الحقيقة حيث لم تدركها العقول فيسرع إلى التكذيب .

ولقد حكى القرآن هذا الموقف من المشركين الذين عجزت عقولهم عن تصور البعث والنشور ، فقال تعالى : ﴿ **وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾[2] .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) الجاثية ٢٤ .

ثم يمعنون فى الإنكار ، ويتحدون تحدياً معجزاً فى تصورهم الفاسد فيقولون : ﴿ **ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾[1] .

ولقد عرض القرآن هذا الإمعان فى الإنكار بأسلوب يدل بوضوح على عدم تصورهم للبعث وتصديقهم به حيث يقول جل شأنه : ﴿ **وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟** ﴾[2] .

إن تصور إحياء الناس بعد أن صاروا رماداً تذروه الرياح ، وتطؤه الأقدام ، صعب وعسير ، وإن العقل البشرى قاصر عن إدراك هذا الهول الخطير ، فهو لا يصدق إن الناس بعد مضى آلاف السنين ، وبعد أن طال عليهم الأمد ، وبعد أن صاروا تراباً ، بعد كل هذا يبعثون ، ويخرجون من قبورهم أحياء كما كانوا ، ثم يحاسبون على كل ما قدمت أيديهم ، ذلك رجع بعيد .

إن القرآن الكريم قد ناقش هذا الموضوع مع أصحاب هذه العقول التى لم تدرك تلك الحقيقة بأساليب شتى : فمرة عرضها بطريق القياس المنطقى ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾[3] .

ومرة يعرضها بطريق القياس الأولوى ﴿ **أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾[4] .

فالله عز وجل فى الآية الأولى يقول لهم : إن الذى أوجدكم من العدم ، قادر على أن يعيدكم بعد موتكم ، وهو جواب مقنع لذوى العقول الفطنة والحواس المرهفة .

ويقول لهم فى الآية الثانية : إن الذى خلق السماوات والأرض مع عظمها وضخامتها قادر على إحياء الموتى الذين هم أقل شأناً من هذه المخلوقات الهائلة ، وهو جواب مقنع لمن يحاول الفهم ويتكلف الإدراك .

---

(١) الجاثية ٢٥ .
(٢) سبأ ٧ ــ ٨ .
(٣) سورة يس ٧٩ .
(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٣ .

ولكن العقول لا زالت متبلدة ، والقلوب مغلقة موصدة فلا حيلة إذن إلا أن يضرب الله الأمثال ، فتتحرك العقول نحو إدراك الأمر المستبعد ، فيقول جلا علاه : ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[1] .

ويقول فى آية أخرى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[2] .

هكذا يحرك الله القلوب لإدراك الغيبيات ، ويلفت الأنظار إلى المحسوسات المشاهدة ، التى لا تستطيع العين إنكارها ، ولا تطيق العقول جحودها .

إن الشجر الأخضر غير قابل للاحتراق ، ولهذا لا يستعمله الناس فى الوقود إلا بعد أن يجف ويبس ، ولكن الله عزت قدرته قد خالف مألوف الناس فى ذلك ليبرهن على قدرته فجعل بين أيدى الناس نوعين من الشجر يقدحان الشرر وهما أخضران ، وهما : الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار ، هذان النوعان إذا أخذ من كل منهما عود أخضر ، وضرب بالآخر ، انقدحت منهما النار وهما نديان رطبان[3] .

وهنا تقوم الحجة على القوم ، فإن الذى يخرج النار من الشجر الذى لا يشتعل قادر على إخراج الموتى أحياء من قبورهم .

وهذه الأرض الميتة التى يراها الناس بأعينهم قاحلة ماحلة لا زرع ولا ضرع ، ينزل عليها المطر فإذا هى تربو وتهتز ، ثم تنشق عن نبات أخضر يانع .

إن الناس جميعاً العالم والجاهل والصغير والكبير والرجل والمرأة الجميع يشاهدون هذا المنظر ، وليس البعث وإحياء الناس إلا نوعاً من هذا الإخراج ﴿ **كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[4] .

---

(١) سورة يس ٨٠ .
(٢) سورة الأعراف ٥٧ .
(٣) فتح القدير جـ ٤ ص ٣٨٣ (٤) سورة الأعراف ٥٧ .

كذلك يربى الإسلام العقول فى البحث والمناظرة الحرة ، فتنمو نمواً طبيعيا دون تعسف أو قسر ، فيعرض عليها الايات الكونية ، ويوجهها إلى التبصر فى النفس الإنسانية ، ثم يخاطبها بالمشاهد الملموس حتى إذا بلغت رشدها ، واستوت على أمدها ، ناقشها مناقشة الحصيف الأريب ، وعرض عليها الفكرة فى ثوب ، ناصع قشيب ، فيقول جل من قائل : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[1] .

تلك هى قصة البشرية برمتها ، ملايين السنين طوتها هذه الآيات البينات فى كلمات ، دون أن تهمل شيئاً منها أو تقصر فى تفصيل حادث من أحداثها .

إن هذا النداء الذى افتتحت به الآيات إيذان بإعلان هام تلفت إليه الأنظار ﴿ **يأيها الناس** ﴾ إنه نداء للبشرية كلها ودعوة لها أن تصغى إلى قصتها ، وتستمع إلى حكايتها .

وهنا تستبعد ما أنكروه من عدم البعث ، وتسرد الأدلة على صحة الدعوى التى طلبت منهم الإيمان بها ، فتقول : إذا كنتم فى شك من قدرتنا على إحيائكم بعد الموت ، فتعالوا واسمعوا ما تلى عليكم لعلكم تقتنعون بحقيقة ما تنكرون .

إننا خلقناكم ـــ خلقنا أباكم آدم ـــ من تراب ، وها أنتم أولاء أبناؤه أحياء تدبون على وجه الأرض ، وتتخاصمون ، وتمترون ، هل فى ذلك شك ؟ فلماذا تستبعدون أن نعيد خلقكم من تراب مرة أخرى ، والعود أهون من البدء؟؟ ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه** ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج ٥ ـــ ٧ .

(٢) سورة الروم ٢٧ .

ثم تروى لنا الآية قصة الجنين فى بطن أمه ، والأطوار التى يمر بها ، وهو بعد ذلك كله موكول أمره إلى الله ، إن شاء أقره فى الرحم حتى يخرج إلى الحياة طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، وعندئذ يشارك فى بناء مجتمع فاضل ، أو يعمل على إفساد الحياة . ويكون عقبة فى بلوغها أمدها ، وإن شاء أمر الرحم أن يلفظه ، فينزل سقطاً ، وتنتهى قصته عند هذا الحد .

وهنا تنتقل بنا الآية فى سلاسة تعجز البشر متظاهرين وسهولة يدركها كل من له عقل ، وروعة تسلب لب الأديب الحاذق حيث تنقلنا من أطوار البشر إلى أطوار النبات ، دون أن يختل النسق أو يختلف الموضوع ﴿ **وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾ .

إنها تذكر الدليل الثانى على أحقية البعث وكينونته ، وهو دليل حسى ملموس ، العين تشاهد ، والقلب يتفتح ، والعقل يتدبر ويعى ، وعندئذ يطرح النتائج البديهية التى يجب التصديق بها بعد ذكر تلك الأدلة .

﴿ **ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾ .

الله هو الحق فلا يقول إلا حقا ، وهو يحيى الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها ، وهو على كل شىء قدير ، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يعجزه إخراجكم من بطن الأرض بعد أن صرتم ترابا ، وقد أخرجكم من بطون أمهاتكم بشراً سويا بعد أن كنتم نطفة من ماء مهين ؟

والساعة آتية لاريب فيها لتتحقق عدالة الله فى خلقه ، ويأخذ كل إنسان حقه ، إذ ليس من العدل أن يسوى الموت بين صالح وطالح ، وبار وفاجر ، فلابد أذن من فرصة ينال فيها كل إنسان جزاء ماقدمت يداه ، وتلك هى الساعة التى لاريب فيها .

وإذا كان لابد من الفرصة ، وكانت الفرصة هى الساعة ، والمقصود منها هو تحقيق العدالة بين الناس ، كان لابد من بعث هؤلاء الناس من قبورهم ، لتجد كل نفس ماعملت محضرا : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن**

يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[1] .

جـ ــ التدريب الروحى :

وهذا الجانب من التربية مهم جدا بالنسبة للجيش الإسلامى وان كان لاتهتم به الدول التى تعتمد على الاسلحة والتدريب وعدد الجنود ، لان ذلك هو الغاية التى تجتهد فى تحصيلها ، وتسعى دائبة لتوفيرها ، وهى لهذا تعتبر هذا الجانب ملهاة لادخل له فى إعداد الجيوش وتدريبها ، وانتصارها على أعدائها .

ولكننا نعتقد أن هذا الجانب هو سر قوتنا ، ووسيلة تفوقنا وأن ماعداه وسائل لاتدفع ضرا ، ولا تجلب نصرا ، وأن النصر من عند الله ﴿ **وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم ﴾**[2] .

وهذا الجانب من التربية هو الفارق الأساسى بين الجيش الإسلامى وغيره من الجيوش ، بل هو العامل الذى حقق به الجيش الإسلامى تلك الانتصارات التى بهرت العالم ، وأدهشت المفكرين ، وتركت القادة العسكريين فى حيرة ، لايدرون بماذا يعللون هزيمة القوة أمام الضعف وفشل الكثرة وهى تواجه القلة ، واندحار التدريب والعتاد أمام الوسائل البدائية ؟؟؟

تلك هى الخصيصة التى تميز بها الجيش الإسلامى ، وتلك هى أهم وسائله لتحقيق انتصاراته ، ولأجل هذا حث القرآن الكريم والسنة المطهرة على الاهتمام بهذا الجانب من التربية ، قال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾**[3] .

وهذه التربية الروحية تتحقق بأمور بينها الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى القرآن الكريم ، كما حث عليها رسول الله ــ ﷺ ــ فى السنة الشريفة وأول هذه الأمور وأهمها الفرائض التى فرضها الله على عباده ، من صلاة وصيام وزكاة وحج [4] .

---

(١) سورة الزلزلة ٧ــ ٨ .

(٢) سورة الأنفـال ١٠ .

(٣) سورة الأنفال ٤٥ .

(٤) راجع كتابنا التربية الإسلامية وأثرها فى تكوين الشخصية .

ولا شك أن أداء هذه الفرائض على الوجه الذى شرعه الله ـــ عز وجل ـــ وبالطريقة التى علمنا إياها رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحقق الصلة بين العبد وربه ، ويديم العلاقة بين الناس وخالقهم ، وذلك هو سر التربية وروحها .

ثم يأتى دور النوافل ، وهى من أهم القربات إلى الله ـــ عز وجل ـــ ومن النوافل قيام الليل ، وصلاة الضحى ، والسنن الراتبة للصلوات ، وصيام التطوع كصيام يوم عرفه وعاشوراء والإثنين والخميس أو ثلاثة أيام من كل شهر ، ومنها تلاوة القرآن وتدبره ، وذكر الله على كل حال .

والآية الكريمة جمعت ذلك كله ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر** ﴾[1] .

وفى الحديث القدسى : « ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[2] .

وأهم هذه النوافل للجنود ، وبخاصة أثناء المعارك ذكر الله تبارك وتعالى لأن الله أمر به جنده حين اللقاء ، قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[3] .

ذكر الله :

وذكر الله تعالى من أهم وسائل التربية الروحية ، وهو الصلة التى يجب ألا تنقطع بين العبد وربه ، فالمؤمن يجب أن يكون لسانه دائماً رطباً بذكر الله ، ولهذا وضع رسول الله ﷺ برنامجاً يشغل به وقت المسلم كله ، يبدأ من استيقاظه وينتهى بنومه ، وهو بهذا يملأ فراغ المسلم ، بحيث لا تمر به لحظة

---

(١) سورة العنكبوت ٤٥ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الأنفال ٤٥ .

إلا وهو مشغول بذكر الله عز وجل وهذا هو معنى الحديث الشريف ، « ليكن لسانك رطباً بذكر الله »[١] .

وهذا الذكر من السنن العملية التى ينبغى للمسلم ألا يفرط فيها ، وأن يأخذ نفسه بها ، ويتدبرها عند القيام بها ، حتى يظل على ثقة بربه موصول القلب بحبه ، مستمداً منه عونه ورشده .

وهاك البرنامج الذى وضعه رسول الله ﷺ :

دعاء الاستيقاظ ، الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[٢]

دعاء دخول الخلاء : اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث[٣] .

وعند الخروج منه : الحمد لله الذى أذاقنى لذته ، وأبقى فىَّ قوته ، ودفع عنى أذاه[٤] .

وعند ابتداء الوضوء يقول : اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى وبارك لى فى رزقى[٥] .

وعند الانتهاء منه يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين[٦] .

وعند لبس الثياب يقول : اللهم إنى أسألك من خيره وخير ما هو له ، وأعوذ بك من شره ، وشر ما هو له[٧] .

فإذا خرج من بيته يقول : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله[٨] .

---

(١) مسلم .
(٢) رواه الطبرانى .
(٣) رواه الشيخان .
(٤) رواه الطبرانى .
(٥) رواه النسائى .
(٦) رواه مسلم والترمذى .
(٧) رواه ابن السنى .
(٨) رواه النسائى .

وإذا توجه إلى المسجد يقول : اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وفوق نورا وتحتى نورا ، وأمامى نورا وخلفى نورا ، واجعل لى نورا[١] .

فإذا دخل المسجد يقول : أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، بسم الله اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك[٢] .

وعندما يسمع المؤذن يقول مثلما يقول ، حتى إذا انتهى قال : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته[٣] .

فإذا انتهى من صلاته يسبح الله ثلاثاً وثلاثين ، ويحمده كذلك ويكبره كذلك ، ثم يقول : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير[٤] ويقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[٥] .

فإذا انتهى من مجلسه ، وأراد القيام ، يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك[٦] .

وعند خروجه من المسجد يقول : بسم الله ، اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك[٧] .

فإذا أراد العودة إلى البيت يقول عند دخوله : اللهم إنى أسألك خير المولج ، وخير المخرج ، باسم الله ولجنا ، وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم يسلم على أهله[٨] .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه أبو داود .
(٦) رواه أبو داود .
(٧) رواه مسلم .
(٨) رواه أبو داود .

فإذا جلس ليأكل يقول : اللهم بارك فيما رزقتنا ، وقنا عذاب النار ، بسم الله[1] فإذا نسى أن يذكر الله فى أول الطعام فليقل بسم الله أوله وآخره[1] .

وعندما يفرغ من الطعام يقول : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين[3] وإذا قدم له أحد طعاماً يدعو له بعد انتهاء الطعام ويقول: أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة[4] .

وهكذا يظل المسلم على صلة وثيقة بربه فى جميع أحواله لا ينفك لسانه رطباً بذكر الله ، يردد اسمه دائماً ، ويبتهل إليه دائماً ، وبهذا يشعر المسلم أنه يأوى إلى ركن مكين ، يمده بعونه ، وينزل عليه نصره ، ويأخذ بيده إلى صراط مستقيم .

والمسلم فوق ذلك كله يذكر الله عز وجل فى كل أوقاته ، لا يختص بذلك وقت دون وقت ، بل هو على كل حال فى ذكر وتكبير وتسبيح وتهليل .

فهو عند البيع والشراء يذكر الله ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾[5] .

وهو فى قيامه وقعوده يذكر الله ﴿ **فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾[6] .

وهو بين أمواله وأولاده يذكر الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾[7] .

وهو فى المسجد والسوق يذكر الله ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر**

---

(١) رواه ابن السنى .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه النسائى .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) سورة الجمعة / ١٠ .
(٦) سورة النساء / ١٠٣ .
(٧) سورة المنافقون / ٩ .

فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾(١) .

وهو فى السلم والحرب يذكر الله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾**(٢) .

وهو فى أضيق المواقف وأحرجها يذكر الله ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ﴾**(٣) .

وهو فى كل أحواله يذكر الله ﴿ **ياأيهاالذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾**(٤) .

وهكذا يظل المسلم طول نهاره لا يفتر عن ذكر الله ، حتى إذا عاد إلى أهله وأراد أن يأوى إلى فراشه ما كان له أن يكف عن ذكر الله ، فإذا أراد خلع ثيابه قال : بسم الله الذى لا إله إلا هو(٥) .

فإذا أراد أن يباشر زوجه قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا(٦) .

فإذا قضى حاجته من أهله ، وأراد أن ينام فعليه أن يختم يومه بذكر الله ، كما بدأه بذكر الله ، حينئذ ينفض فراشه بطرف ثوبه ثلاثاً ثم يقول : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين(٧) .

فإذا أصابه أرق ، ولم يستطع النوم يقول : اللهم رب السموات السبع وما أظلت : ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك أجمعين ، أن يفرط على أحد منهم أو أن يطغى ،

---

(١) سورة النور / ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) سورة الأنفال / ٤٥ .
(٣) سورة طه / ٤٢ .
(٤) سورة الأحزاب / ٤١ ، ٤٢ .
(٥) رواه ابن السنى .
(٦) رواه البخارى .
(٧) رواه الشيخان .

عز جارك ، وتبارك اسمك[1] .

فإذا استيقظ ليقوم الليل وهى سنة محمودة ينبغى للمسلم أن يحافظ عليها ، ولا يخلى ليله من ركعات يصل قلبه فيها بالله عزوجل . عندئذ يقول : اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله[2] .

هكذا يكون المسلم مربوطاً بذكر الله ، وثيق الصلة بمولاه مشدوداً قلبه إلى السماء ، عندئذ يكون أهلاً لنصر الله ، ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم** ﴾[3] .

وهكذا يتعهد الإسلام جنوده ، وهكذا يربيهم بتلك التربية المتكاملة التى تنهض بهم جسمياً وعقلياً وروحياً حتى يصبح كل منهم ذلك الجندى الذى يرفع رأس وطنه ، ويحمى بلاده ، ويحقق لها المنعة ، ويجلب لها المجد والعزة .

وهكذا تؤدى القيادة واجبها نحو جنودها : تؤديه كاملاً غير منقوص لأنها تعلم أنها مسئولة عنه أمام الله تعالى وأنها ستقف بين يدى الله جل شأنه وقفة طويلة ، وستحاسب يومئذ عن كل صغيرة وكبيرة .

إن القيادة فى الإسلام تكليف لا تشريف ، وقائد المسلمين أكثرهم تبعة ، فهو مسئول عن نفسه وأهله ، ثم هو مسئول عن كل فرد من رعيته ، مسئول عن إطعام الجائع ، وكسوة العارى ، ومعالجة المريض كما هو مسئول عن تمهيد الطريق ، وإقامة الجسور ، وبناء المشافى .

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه البخـارى .

(٣) سورة الروم ٣ ــ ٤ .

وليست هذه المسئولية أمام مجلس الوزراء ، ولا أمام مجلس الشورى ولا أمام الشعب ، وإلا لكان الأمر هيناً ، يمكر فيه استدراك الخطأ ، وتغيير القوانين لرفع المسئولية ، ولكنها مسئولية أمام الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ولقد كان هذا المعنى مستقراً تماماً فى نفوس المسئولين من المسلمين ، وعبر عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لم أسو لها الطريق » ؟

كذلك كان الخليفة الزاهد ـــ عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـــ يرسل مناديه إلى الأسواق ينشد طلبة العلم المحتاجين والفقراء المعوزين ليعطيهم حقوقهم ، حتى كان يزوج غير المتأهلين .

دخل عليه مرة أحد أبنائه ، فرأى فى أصبعه خاتماً ثميناً فسأله ، كم قيمته ؟ فقال : سبعة آلاف درهم ، فقال : أى بنى ، بعه ، واطعم بثمنه سبعة آلاف مسكين ، واشتر لك خاتماً من حديد ، واكتب عليه : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

حقـوق القيـادة

وللقيادة حقوق جزاء ما قدمت من الواجبات ، وهذه الحقوق وضحتها السنة الشريفة ، وحدد معالمها رسول الله ﷺ فكان لزاماً على المسلمين أداؤها ، وكان الإهمال فيها والتقصير فى القيام بها ، إهمالاً لواجب شرعى ، وتقصيراً فى أمر من أمور الدين .

وكما أن القيادة أدت واجبها ، فعلى المسلمين أن يوفوها حقوقها جزاء وفاقا ، وتلك الحقوق تتلخص فيما يأتى :

١ ــ السمع والطاعة .
٢ ــ المناصرة والتأييد .
٣ ــ النصح والتسديد ولنتناولها بالتوضيح سائلين الله جل علاه العون والتوفيق .

١ ــ السـمع والطاعة :

وهما من أهم حقوق القيادة فى كل زمان ومكان ، إذ بغير السمع والطاعة لا يمكن الضبط والربط ، كما لا يمكن تكوين جيش رادع لعدوه ، يدافع عن وطنه ، وبغير السمع والطاعة تكون الفوضى التى لا نظام فيها ، والاضطراب الذى لا استقرار معه ، ولهذا قال ﷺ « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »[1] .

والمسلمون منذ نشأتهم تربوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، وعلى كل حال ، فليس لمسلم قط أن يتردد فى أمر صدر إليه

---

(١) رواه البخـارى .

من الله ورسوله ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[1] .

وكان مجرد التردد نفاقاً يفضح صاحبه ، ولهذا لما نزل قوله تعالى : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم** ﴾ قال المؤمنون : « لو فعل الله لفعلنا » وقال أحدهم : « لو أمرنا الله لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا » فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال : « إن من أمتى لرجالاً الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى[2] .

المسلم الحق هو الذى أسلم نفسه لله عز وجل وليس من حقه أن يتردد فى أمر يصدر إليه من أميره ، ذلك لأنه من أطاع أميره فقد أطاع رسول الله ﷺ ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن يعصنى فقد عصا الله ، ومن يطع أميرى فقد أطاعنى ومن يعصى أميرى فقد عصانى »[3] .

وهكذا يجب أن يكون المؤمن ، يصدع بما يؤمر ، وينفذ ما يطلب منه ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون** ﴾[4] .

ولا يكون السمع والطاعة فيما تحبه النفس وترغب فيه فقط ، ولكن السمع والطاعة المطلقة فى كل ما يحب الإنسان أو يكره ، وفيما هو سهل ميسر أو شاق عسير ، يقول عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا »[5] .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٦ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٥٢٦
(٣) مسلم جـ ٦ ص ١٣ .
(٤) سورة النور ٥١ .
(٥) مسلم جـ ٦ ص ١٧ .

ويروى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره »[1] .

والسمع والطاعة ، لا يكونان لوجاهة الأمير ، أو الخوف منه ، وإنما السمع والطاعة لكل أمير يلى أمر المسلمين ما دام يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففى حديث أم الحصين تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود ، يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا وأطيعوا »[2] .

وليست الطاعة إلا فى المعروف ، فأيما أمير أمر بمعصية فهو غيرمطاع ففى حديث على كرم الله وجهه « إنما الطاعة فى المعروف »[3] .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما « إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[4] .

وليست الطاعة عندنا عمياء ، بل هى طاعة مبصرة رشيدة تصدر عن اقتناع وبصيرة ، فأيما أمير حاول زج جماعة فى أمر لا يتفق مع قواعد الشرع والعقل ، فأمره مردود عليه ،عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً وأمر عليه رجلاً ، فأوقد ناراً ، وقال : ادخلوها ، فأراد ناس أن يدخلوها ، وقال آخرون : إنما فررنا منها ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة » وقال للآخرين قولاً حسنا ، وقال : « لا طاعة فى معصية الله ، وإنما الطاعة فى المعروف »[5] .

هكذا يرى الإسلام جنوده تربية رشيدة حكيمة ، تؤدى فيها القيادة

---

(١) مسلم جـ ٦ ص ١٥ .
(٢) مسلم جـ ٦ ص ١٥ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) مسلم جـ ص ١٥ .

واجبها وتمارس حقوقها ، فليس قائد المسلمين بالمستبد المتغطرس ، ولا هو بالجائر المتكبر ، ولكنه العادل الشفيق المتواضع الرفيق ، يحنو على جنوده ويعطف عليهم ، يدفعه إلى ذلك شعور بالواجب ، وعاطفة نبيلة تجعله يشعر أنه أب لصغيرهم ، وأخ لكبيرهم .

وليس الجنود عاقين متمردين ، ولا منتهزين متربصين ، ولكنهم أبرار مطيعون ، بواسل مضحون ، يدفعهم إلى ذلك إيمان عميق وعقيدة راسخة ، وشعور دفاق بحدب القيادة عليهم ، وحرصها على مصالحهم .

وإذا كانت القيادة من هذا الطراز الفذ ، وكان الجنود على هذه الشاكلة الفريدة ، تم التجاوب ، وساد الوفاق ، وعندئذ تأمر القيادة فيطيع الجنود ، وتهتف فيلبون ، وتخطط وهم ينفذون .

٢ ــ المناصرة والتأييد :

وهما حق من حقوق القيادة ما دامت تقود المسلمين بأوامر الله ، وتحكمهم بكتاب الله ، وتأخذ بأيديهم إلى الخير ، وتهديهم إلى الرشد ، فحينئذ يجب مناصرتها وتأييدها ، وبذل أقصى الجهد فى مؤازرتها ، لأن فى تأييدها ومؤازرتها تأييداً للحق ، ومؤازرة للخير ، وتلك هى مهمة المسلمين وغايتهم فى هذه الحياة .

ولقد أخذت المناصرة صوراً شتى حسبما يقتضيه الموقف وتدعو إليه الضرورة ، فكانت تارة بالوقوف إلى جانب القيادة وهو ما نسميه المشاركة الوجدانية ، وتارة بالدفاع عنها باللسان مرة وبالسنان مرة ، وتارة أخرى ببذل الأموال والأنفس فى سبيل الحفاظ عليها ،والجنود فى كل هذا يؤدون واجباً عليهم معتقدين أنه حق للقيادة الرشيدة ، لا بد من تقديمه لها ، وفاء لما قدمته من جهد ، وما بذلته من تضحيات .

المشاركة الوجدانية :

والوقوف إلى جانب الحق نوع من المؤازرة يعز أحياناً الحصول عليه ،

وهو مع كونه يبدو سلبياً إلا أنه فى حينه ، وحين لا يستطيع الإنسان غيره موقف رائع لا ينساه المنصفون لذويه ، والإنسان فى محنته يتفقد أنصاره ، ويلتمس العون من أحبابه ، فإن وجد منهم التألم لما يصيبه ـــ وهو أقل ما يقدمه نصير ومعين ـــ وهم لا يقدرون على غيره ، سلت نفسه ، وخفت عليه آلامه .

وإنك لترى نبل الإنسانية ـــ أحياناً ـــ فى دمعة طفل أكثر مما تراها فى ضربة سيف من رجل قوى ، وإن الكلمة الطيبة يقولها إنسان لا يملك غيرها أثلج للصدر من طعنة رمح من يدى شجاع فتى ، وكلمة الحق فى وجه الظالم من رجل لا يستطيع سواها أروع فى واقع الأمر من خوض معركة دامية من فارس مغوار .

وإنك لتلمس هذا الموقف ، وتهزك روعته حينما تكون ضعيفاً فى يد ظالم قوى ، وحينما يتخلى عنك أشقاؤك وذووك وزوجك وبنوك ، وأمك وأبوك ، ثم تتلفت حولك فلا تجد إلا إنساناً يشاطرك محنتك ، يتألم لألمك ، وتتقطع نياط قلبه حسرة على ما ينزل بك من العذاب ، ثم يقدم نفسه طائعاً مختاراً ليتحمل عنك قسطاً من هذا العذاب أو يشاركك فيه ، حقاً ما أروع المؤازرة ولو بكلمة فى وقت تكمم فيه الأفواه ، ويعز فيه المتكلمون .

حدث ذلك فى مكة يوم كانت الدعوة الإسلامية فى مقتبل عمرها ، ويوم كانت القيادة الإسلامية عزلاء إلا من إيمانها ، يوم كان رسول الله ﷺ يتلفت حوله فلا يرى إلا بلالاً مكبلاً فى أصفاده ، وعماراً يصب الحميم على رأسه وينصت فلا يسمع إلا أنات سمية ، وتوجعات ياسر وصرخات صهيب .

إن هؤلاء لا يملكون من مناصرة القيادة وتأييدها إلا أن يقفوا هذا الموقف الصامد الرائع ، وكان باستطاعتهم أن ينجوا من هذا العذاب لو تخلوا عن القيادة ، وفروا من الميدان ، وحينئذ يكون على القيادة أن تتحمل وحدها هذا العبء الثقيل ، ولكن ذلك لم يكن من الجنود ، وكانت هذه المناصرة ـــ التى يراها كثير من البسطاء سلبية ـــ كانت أروع ما حمله إلينا التاريخ من مواقف هؤلاء المستضعفين .

وحدث ذلك فى العصر الحديث حين امتدت يد الظلم والإرهاب إلى الفئة المؤمنة ، تتخطفهم من كل درب ، وتطار هم فى كل صوب ، وترمى بهم ـــ دون مبالاة ـــ فى غيابات السجون ، وأمعنت فى تعذيبهم حتى استولى الرعب على القلوب ، وسيطر الفزع على النفوس ، وحتى أصبح الرجل يتبرأ من ابنه وأخيه مخافة أن يشاركه محنته ، ويعيش معه آلامه ، وحتى كانت الزوجة تطلب من زوجها الطلاق وترمى بأولاده فى قارعة الطريق مخافة أن تتهم بمساعدته والوقوف إلى جانبه .

وكان المؤمن الممتحن يلتفت حوله ، فلا يجد أباً يسليه ولا أخاً يواسيه ، ولا زوجة تصافيه ، ثم يلتفت فلا يجد إلا إناساً شاطروه محنته ، وقاسموه آلامه ، وينصت فلا يسمع إلا آهات المعذبين ، وزفرات المكلومين .

إن أقسى ما يصاب به المرء فى حياته تخلى إخوانه وأحبابه عنه فى وقت عصيب ، تؤدى فيها الكلمة الطيبة دورها ، وتعمل فيه المشاركة الوجدانية عملها فى تخفيف الآلام وتعزية المصاب وتهدئة الخواطر .

وإن أقسى من هذا التخلى وأمر أن يضن الإنسان حتى بكلمة الحق ، فلا يقولها ، وأن ينعزل وجدانياً عن أهل الحق ، فلا يشاركهم آلامهم ـــ وذلك أضعف الإيمان ـــ وكان باستطاعة هؤلاء المعذبين أن ينجوا من هذا العذاب لو تخلوا عن الحق ، وأعلنوا تأييدهم للباطل ، ولكن ذلك لم يحدث من الجنود ، بل كان منهم المناصرة والتأييد للقيادة المؤمنة التى شاركتهم هذا العذاب ، وأبت أن تنخدع بوعود معسولة ، وأمانى جميلة ، وأصرت على البقاء مع الجنود حتى تنكشف الغمة ، وتزول المحنة ، ويرتفع البلاء .

وزالت المحنة ، وباء الطغاة بما كسبت أيديهم ، وخرج المؤمنون منها أشد ثقة بالله ، وأصلب عوداً ، وأصفى معدناً وقلوباً ، وأكثر تمسكاً بإيمانهم وقيادتهم .

والحقيقة أنه ليس للجنود الحرية فى تحديد موقفهم من القيادة فى هذه المشاركة الوجدانية ، لأنها واجبة على كل مسلم ، بل هى أضعف الإيمان كما قلت من قبل ، وإن تخلى الجنود عن هذا الموقف لهو بعينه الهروب من الميدان ،

وخذلان للحق ، وفرار من الواجب وليس بعد التخلى عن الحق ، والفرار من الواجب إيمان يرتجى ، ومن أجل هذا أخبر الله سبحانه بأن الذين آزروا رسول الله ونصروه ، وأيدوه وعزروه هم المفلحون حقاً ، قال تعالى ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور ، الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾(١) .

المشـــاركة الفعلية :

لم تزل الفئة المؤمنة تلتف حول قيادتها ، وتحوطها باهتمامها ، وتتحمل ألوان العذاب ولا تتخلى عنها ، حتى آنست من نفسها قوة ورأت أنها تستطيع الدفاع عن نفسها ، وتحمى قيادتها ، فلم تبخل حينئذ بجهد ، ولم تضن بعزيز ، حتى أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما قال عمر : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ بلى ، فقال عمر : ففيم الاختفاء ؟ ؟ .

وخرج المسلمون فى صفين : عمر فى أحدهما ، وحمزة فى الآخر حتى دخلوا المسجد ، يقول عمر رضى الله عنه فنظرت قريش إلى وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة ، فسمانى رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ(٢) .

فكان إسلام حمزة رضى الله عنه ومن بعده عمر منعة لهم حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر(٣) .

وفى البخارى عن ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ومنذ ذلك بدأ المسلمون يدرأون عن أنفسهم اعتداء المشركين ، ويدفعون عدوانهم بمثله ، روى عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه سعد قال : خرجت أنا وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر ، وابن مسعود فى شعب أبى دب نتوضأ ونصلى ، ونحن مستخفون ، إلى أن ظهر علينا نفر من

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ١٠٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٣ .

المشركين فقد كانوا يرصدوننا ، واتبعوا أثرنا ، أبو سفيان بن حرب والأخنس ابن شريق وغيرهما فعابوا علينا ذلك وأنكروا حتى بطشوا بنا ، فتضاربنا واقتتلنا ، فأخذ سعد لحى جمل فضرب به رجلاً من المشركين فأشجه شجة أوضحت ، فأنكر المشركون وقوى أصحابى ، وطردناهم حتى خرجوا من الشعب ، فكنت أول من هراق دماً فى الإسلام[1] .

وكانت تلك بداية المعارك للدفاع عن العقيدة ، ومناصرة القيادة .

المناصرة باللسان :

لم يضن المسلمون بجهد يستطيعونه فى مناصرة القيادة ، فكانت باللسان تارة ، وبالسنان تارة أخرى ، كانوا يدافعون بألسنتهم حين لا يملكون الدفاع بغيرها ، من ذلك ما حدث لزيد بن الدثنة رضى الله عنه بعد أن تمكن منه المشركون وعلقوه ليقتلوه ، يقول القسطلانى : نادى أبو سفيان بن حرب زيداً ، يا زيد أتحب أن تكون فى أهلك وولدك ومحمد فى مكانك هذا ؟ فيرد زيد عليه ، لا والله ، لا أحب أن أكون فى أهلى وولدى ورسول الله ﷺ يفدينى بشوكة فى قدمه .

قال أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا[2] .

وفى مختصر السيرة عن خباب رضى الله عنه قال : كنت قينا ـــ حداداً ـــ بمكة ، فعملت للعاصى بن وائل السهمى ، فجئت أتقاضاه ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا.لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك[3] .

وفى رواية أنس رضى الله عنه عند البيهقى قال : خرج عمر متقلداً بالسيف ، فلقيه رجل من بنى زهرة ، فقال : أين تعمد يا عمر ؟ فقال له أريد أن أقتل محمداً ، قال : وكيف تأمن بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟

(١) الأوائل للعسكرى ص ١٧٢ .
(٢) المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٠٢ .
(٣) مختصر السيرة ص ١٢٦ .

قال : ما أراك إلا صبوت ، قال : أفلا أدلك على العجب ؟ إن أختك وختنك ــ زوج أختك ــ قد صبوا وتركا دينك .

فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب ، فلما سمع عمر توارى فى البيت ، فدخل فقال : ما هذه الهينمة ؟ ــ وكانوا يقرأون طه ــ قالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما فقال ختنه ، يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عليه عمر فوطئه وطأ شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها ، فنفحها بيده ، فدمى وجهها ، فقالت وهى غضبى : إن كان الحق فى غير دينك ؟ إنى أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال عمر : أعطونى الكتاب الذى عندكم فأقرأه ــ وكان عمر يقرأ الكتاب ــ فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم واغتسل وتوضأ ، فقام وتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ « طه » حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾[1] .

تلك مواقف مشهودة يسطرها التاريخ بكثير من الاعتزاز والفخر لهؤلاء المستضعفين الذين لا يملكون إلا قلوبهم وألسنتهم ، ولم تكن قلوبهم إلا أوعية لإيمانهم ، وليست ألسنتهم إلا سيوفاً ينافحون بها عن إيمانهم وقيادتهم .

فزيد بن الدثنة أسير لا يملك إلا لسانه ، ولم يهب القوم ودافع به « لا أحب أن أكون معافى فى أهلى ، ومحمد مكانى يفدينى بشوكة فى قدمه » .

وخباب غريب ضعيف لا يملك إلا الإصرار على الحق ، وقد فعل دون تقصير « لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يحييك » وأما أخت عمر فهى امرأة فى بيتها ، ولم يكن زوجها يتوقع قدوم عمر ، فلم يكونا على استعداد لمواجهته ، ولما يفتهما ، لم يكونا يملكان إلى الحجة التى تدمغه ، وتدله على الحق ، ولم يكتماها . « إن كان الحق فى غير دينك » ؟ فلما أراد أخذ الصحيفة قالت أخته: « إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون » .

ومناصـــرة بالســـلاح :

كما دافع المسلمون عن عقيدتهم وقيادتهم بألسنتهم حين كانوا لا يملكون

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى .

غيرها ، دافعوا عن عقيدتهم وقيادتهم بأسلحتهم حين أذن لهم فى ذلك ، فخاضوا أعنف المعارك ، واقتحموا أصعب الأهوال ، دفاعاً عن الحق الذى اعتنقوه ، ودرءاً عن القيادة التى تمثل تلك العقيدة .

لما خلص المشركون إلى رسول الله فى غزوة أحد ، وكادوا يلتهمونه بسيوفهم ورماحهم ، تترس حوله رجال من المسلمين ، حتى لا ينال المشركون منه مأربهم .

فأبو دجانة رضى الله عنه تترس عنه بظهره ، وكان النبل يقع فيه ، ولا يتحرك عنه[1] ، وعلى كرم الله وجهه أخذ بيده ، وأخرجه من الحفرة التى وقع فيها[2] ودافع بين يديه دفاعاً عظيماً ، وطلحة بن عبيد الله وقاه بنفسه ، وحارب عن يمينه وشماله ، حتى روى البخارى عن قيس قال : رأيت يد طلحة ابن عبيد الله شلاء ، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد .

وفى صحيح ابن حبان عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس عن النبى ﷺ فكنت أول من فاء إليه ، فرأيت بين يديه رجلاً يدافع عنه ويحميه فقلت : كن طلحة فداك أبى وأمى فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كالطير حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبى ﷺ « دونكم أخاكم فقد أوجب » قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابه بضع عشرة ضربه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك يوم كله لطلحة[3] .

وكان لسعد بن أبى وقاص دور مهم وعظيم ، فكان رسول الله ﷺ كنا كنانته وقال : « ارم فداك أبى وأمى » وروى عن سعد رضى الله عنه قال : سل لى رسول الله ﷺ كنا منه وقال : « ارم فداك أبى وأمى »[4] .

---

(١) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٩٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٥ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ص ٢٤٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وقاتل مصعب بن عمير رضى الله عنه دون رسول الله حتى قتل قتله ابن قمئة يظنه رسول الله ﷺ[1] .

وفى البخارى رحمه الله « مر أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم فقال : يا قوم ، ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ، فقال ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ، ثم استقبل المشركين وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـــ يعنى المشركين ـــ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـــ يعنى المسلمين ، ثم قاتل حتى قتل ، فما عرفه إلا أخته ببنانه ، ووجدوا به سبعين ضربة » .

وكذلك قاتل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حتى أثخنته الجراح ووجدوا به عشرين جراحة ، بعضها فى رجله ، ظل يعرج منها حتى مات[2] .

تلك فدائية نادرة لم تعرفها الدنيا من قبل أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم أجمعين جادوا بأنفسهم وأرواحهم لحماية عقيدتهم وقيادتهم ـــ والجود بالنفس أقصى غاية الجود ـــ .

لقد علم الجنود أن اللسان لا يغنى فى هذا الموقف شيئاً ، فامتشقوا السلاح ، وأيقنوا أن الكلمة لا مجال لها هنا ، فجردوا الحسام ، وتأكدوا أن الأمر جد خطير لا يحسمه إلا البذل والكفاح فبذلوا المهج والأرواح .

ثم مناصرة بالأموال :

والمال شقيق الروح وقد يحرص عليه الإنسان أكثر مما يحرص على نفسه ، علم الله ذلك من عباده فانتدبهم لبذله وحثهم على الخروج من شح أنفسهم بإنفاقه ، فى سبيل الله ، ولعل تقديم الأموال على الأنفس فى آيات الجهاد توضيح لمكانة المال من نفوس الرجال ، وتحريض لهم على التبرع به لينالوا منازل الأبرار .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٩ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٢٤٩ .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾(١) .

﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون** ﴾(٢) .

﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله** ﴾(٣) ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾(٤) .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾(٥) .

هذا الحرص على تقديم الأموال على الأنفس فى معظم آيات الجهاد يفيد تذكيرنا بقيمة بذل الأموال لمناصرة العقيدة والقيادة ويبين منزلة الأموال حين تبذل ولا تكنز ، ويضحى بها ولا يضحى لأجلها .

إن الجنود وهم ينصرون الحق بألسنتهم ، ويبذلون فى سبيله أرواحهم ، ويخرجون من أجله عن أموالهم يكونون قد أدوا واجبهم نحو عقيدتهم ، وقيادتهم ، وبدون ذلك يكون هناك نوع من التقصير يجب أن يسعى المسلم للتخلص منه .

إن المناصرة بالكلمة والروح ، دون بذل الأموال مع وجودها ثلمة فى عقيدة المسلم ، ووهن فى إيمانه ، وإن إمساك الأموال وعدم بذلها مع الحاجة إليها سبيل للشيطان ، يدخل منه إلى قلب المؤمن ، فيبغض إليه الموت ، ولو كان فى سبيل الله ، ويتمنى الحياة ليستمتع بأمواله ، ويخوفه من قول كلمة الحق ، حتى لا يتعرض لسخط الناس ، فلا يسعد بما اكتنز من أموال ،

---

(١) سورة الأنفال ٧٢ .
(٢) سورة التوبة ٢٠ .
(٣) سورة التوبة ٤٠ .
(٤) سورة الحجرات/ ١٥ .
(٥) سورة الصف ١٠ــ ١١ .

وهكذا يكون إمساك المال مضيعة لجميع أنواع المناصرة .

فهم هذا المعنى عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أحد القواد الثلاثة فى غزوة مؤتة ، فإنه بعد استشهاد صاحبيه ، أخذ الراية ، وتردد بعض التردد ، أيقدم أم يحجم ؟ والرسول مفزع والخطب جسيم ، فإن المسلمين خمسة آلاف ، يواجهون مائتى ألف من الروم وحلفائهم العرب .

ولكنه رضى الله عنه استجمع إيمانه ، واستعرض أسباب تردده ، فخشى أن يكون حب الدنيا ، والركون إلى ما فيها من أزواج وأموال ، وخاف أن يكون حب الحياة وتعلقها بنفسه هو سبب هذا التردد ، فعزم على نفسه لتردن موردصاحبيه ، وكأنه خاطب نفسه قائلاً :

يا نفس مالك تترددين فيما أقدم عليه صاحباى ؟ أتحبين العودة إلى النساء ؟ نسائى كلهن طوالق ، أترغبين فى الاستمتاع بالأموال ؟ ؟ أموالى كلها حبس فى سبيل الله ، أتتعلقين العودة إلى العبيد والإماء ؟؟ ؟ عبيدى كلهم أحرار ، ثم أنشد :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ما لى أراكى تكرهين الجنة
هل أنت إلا نطفة فى شنة ؟

وعاتب نفسه على ترددها ، ولامها إذ لم تقتد بهديهما فقال :

يا نفس إن لم تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت

وبهذا يتخلص ابن رواحة رضى الله عنه من كل ما يشده إلى الدنيا ويربطه بالأرض ، فيطلق نساءه حتى لا تتشوق نفسه إليهن ويحبس أمواله حتى لا تتعلق نفسه بها ، ويعتق عبيده حتى لا ترغب نفسه عن الجهاد بسببهم ، ثم يقدم فيموت كما مات صاحباه .

ونحن نرى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى يوم الهجرة يأخذ ماله كله ويسأله رسول الله ﷺ وماذا أبقيت لعيالك ؟ فيقول : أبقيت لهم الله

ورسوله ، وكان ماله خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف »[1] .

وفى يوم غزوة العسرة يكون المسلمون فى حاجة ملحة إلى المال ، ورسول الله ﷺ يحرض الناس على الإنفاق ، فيسرع عمر رضى الله عنه ويحضر نصف ماله ، فيجد أبا بكر رضى الله عنه سبقه بماله كله ، وكان أربعة آلاف درهم[2] فيقول عمر والله لا أباريه بعدها أبدا .

ويقدم عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية من فضة ، فيجد عثمان بن عفان رضى الله عنهما قد جهز مائتى بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتى أوقية من الذهب[3] ، وترسل النساء كل ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم[4] .

ويرى رسول الله ﷺ ذلك فتقر عينه ، ويثلج صدره ، وينظر إلى صدقة عثمان ، ويقول : اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه[5] ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم[6] .

هكذا كان المسلمون يتنافسون فى الخيرات ، ويتسابقون إلى الطاعات ويخرجون عن أموالهم طائعين ، ينصرون بها قيادتهم ، ويدافعون عن عقيدتهم ، ملبين قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله ، بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾[7] .

---

(١) سيرة ابن هشام م ١ ص ٤٨٨ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٣) المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٧٢ .

(٤) مختصر السيرة ص ٣٩٢ .

(٥) ابن هشام م ٢ ص ٥١٨ .

(٦) رواه الترمذى .

(٧) سورة الصف ١٠ ــ ١٣ .

٣ــ النصح والتسديد :

والنصيحة واجبة على كل مسلم ، قادر عليها عارف بطرق تأديتها ، ولقد عظم رسول الله ﷺ شأن النصيحة التى جعلها هى الدين ، ذلك لأن إهمال النصيحة يؤدى إلى تفكك الأمة وتفرقها ، وانتشار الفوضى فى أنحائها ، وتأدية النصيحة يقيم الأمة ويوحدها ، ويشد أزرها ويدعمها ، ويقضى على الفوضى ، ويدمرها ، ولهذا قال ﷺ « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »(١) .

والنصيحة بهذا المعنى أعم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن النصيحة تشمل ذلك وزيادة ، وهى بهذا المعنى أيضاً تكون فرض كفاية على الأمة ، إذا قام به البعض ، سقط الإثم عن الجميع وإلا أثموا جميعاً .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ كما قلت ــ من النصيحة التى يستقيم بها أمر الأمة ، وتكون بها خير الأمم جميعاً ، قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله** ﴾(٢) .

ومراتبه ثلاث : أعلاها التغيير العملى ، وأدناها إنكار القلب ، وتأمله للمنكرات ، ورضاه واغتباطه بالمعروف ، وأوسطها التوجيه المخلص بالكلمة الطيبة وعلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله سبحانه .

واتفق العلماء على أن التغيير باليد لا يكون إلا عند القدرة عليه ومن القادر عليه كأولى الأمر بمعناها العام ، حتى تشمل الوالد فى بيته والرئيس فى عمله ، بحيث يكون كل واحد من هؤلاء مسئولاً عن كل من تحت يده ، وعندئذ يغير المنكر بيده ، ويقيم المعروف بنفسه ذلك لأنه بهذه المثابة راع على من هم تحت يده ، وهو مسئول عن هذه الرعية مسئولية تامة ، وعليه ليرفع عن نفسه تبعة تلك المسئولية أن يراعى حقوق الله ، فإن رأى خللاً فى عمله أو فى بيته قومه وعدله ، وإن رأى حسناً أقره وحث عليه فيعاقب على التقصير

---

(١) رواه مسلم م ١ ص ٥٣ .
(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

بعد أن يبذل جهده فى الإصلاح والتوجيه ، ويثيب ويكافىء على الإحسان والمحافظة على فعل الخير .

والله تبارك وتعالى قد أمرنا بضرب النساء بعد وعظهن وهجرهن إذا أصررن على النشوز ، وذلك تغيير باليد ، والرسول ﷺ أمرنا بضرب أبنائنا إذا بلغوا عشر سنين ولم يصلوا ، وذلك تغيير باليد .

قال تعالى : ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن** ﴾[1] .

ويقول ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين »[2] .

وأما الإنكار بالقلب ، والتألم لرؤية المعاصى ، فلا يجوز الاكتفاء به إلا ممن كان عاجزاً عن التغيير باليد واللسان ، لأنه أدنى مراتب الإيمان ، والحالة التى تليه مخيفة ومزعجة ، إذ ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل ، فمن رأى المنكر وسر به ، أو رأى المنكر ولم يتغير قلبه ويتألم لما رأى ، فهو على خطر عظيم ، لأنه بذلك يكون قد انحدر إلى ما دون أضعف الإيمان وفقد مثقال الحبة التى تتحقق بتألم القلب واشمئزازه من المعصية ، لهذا يقول ﷺ « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[3] .

وأما التوجيه والإصلاح بالكلمة الطيبة ، فذلك أوسط الأمور الثلاثة ، وهو مقدور لكثير من الناس .

واشترطوا فيه شروطاً فى الناصح ، وشروطاً فى النصيحة .

شروط الناصح :

أولاً : أن يكون عالماً بالحكم الشرعى لما يأمر به أو ينهى عنه ، لأنه إذا لم

---

(١) سورة النساء ٣٤ .

(٢) من حديث لأحمد فى مسنده .

(٣) رواه مسلم م ١ ص ٥٠ ــ ٥١ من حديث طويل .

يكن عالماً بالحكم الشرعى يتعرض للخلط والخطأ فيحسب السنة واجباً والمكروه حراماً ، ولا يفرق بين البدعة والسنة وبالعكس ، وحينئذ قد يقع فى المحذور فيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، ويترتب على ذلك من المفاسد ما لا تحمد عقباه ، ويكون الناصح عرضة للسخرية والاستخفاف مما يصرف الناس عنه فلا يفيد ولا يستفاد منه .

ثانياً : أن يتحرى الطريقة المناسبة عند أمره ونهيه مراعياً الظروف والأحوال التى يعيش فيها الناس لأنه إذا لم يتحر الطريقة المناسبة ، ولم يراع ظروف المنصوحين وأحوالهم عند الأمر والنهى يترتب على ذلك من الأضرار ما كان المسلمون فى غنى عن الوقوع فيه ، فقد يشتد فى موضع اللين فينفر منه الناس ولا يستمعون إليه ، أو يغلظ فى موطن الرفق ، أو يتهاون فى موقف لا يصلح فيه إلا الحزم ، وعندئذ تضيع الفرصة وتنعدم الفائدة ، فلا يستفيد المنصوح ، ولا يثاب الناصح .

ثالثاً : أن يكون عاملاً بما ينصح به الناس مطبقاً له على نفسه وأهله ومن يعول ، لأنه إذا لم يعمل هو بما يأمر به الناس لا يصل نصحه إلى القلوب ، ولا تتجاوب مع كلامه النفوس ، فيظل كلامه جافاً لا يتجاوز آذان الناس ، ونصحه هزيلاً ، لا يقوى على اقتحام قلوبهم ، ويضع نفسه بذلك موضع الهمزواللمز ، وقديماً قال الشاعر :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى والطبيب مريض

وقال آخـر :

ياأيها الرجل المعلم غيـره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيمـا يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيـم

ولقد نعى الله عز وجل على قوم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، واعتبر ذلك ضلالاً فى الرأى ، وقلة فى العقل ، فقال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟** ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ٤٤ .

واعتبر سبحانه وتعالى الكلام وعدم الفعل مقتاً كبيرا لا يليق بالمؤمنين فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾[1] .

والآيتان الكريمتان مصدر الاستدلال على الشرط الثالث .

وأما الشرطان الأولان فمصدرهما قوله تعالى ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[2] .

فالحكمة هنا هى الحجج القطعية الصحيحة كما قال صاحب فتح القدير ، أو هى الأدلة اليقينية الموضحة للحق ، المزيحة للشبه كما صرح بذلك البيضاوى .

المعنيان متحدان فى وجوب معرفة حكم الشرع وأدلته عند دعوة الناس إلى الخير ونهيهم عن الشر .

والموعظة الحسنة هى المواعظ المفيدة المستحسنة التى يستحسنها السامع لأنها تعود عليه بالنفع والفائدة .

وهذا هو ما قاله صاحبا التفسيرين السابقين وجمهور من المفسرين ، وهى تحتم ضرورة تحرى الطرق المناسبة المفيدة للمنصوح ، واتباعها عند تقديم النصيحة حتى تقع موقعها .

ولقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نقوم بهذا الواجب فى أمثلة عملية مع أصحابه رضوان الله عليهم حين جاءه أعرابى فجذبه بردائه فحمر رقبته ــ وكان رداء خشناً ــ فالتفت إليه ، فقال الأعرابى : احملنى على بعيرى هذين ، فإنك لا تحملنى من مالك ، ولا من مال أبيك ، فقال له ﷺ : لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، لا أحملك حتى تقيدنى من جذبتك التى جذبتنى ، فقال الأعرابى : والله لا أقيدكها ، عندئذ دعا رسول الله رجلاً ، وقال له : احمل له على بعيريه هذين ، على بعير تمراً ، وعلى الآخر شعيراً[3] .

---

(١) سورة الصف ٢ ــ ٣ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

(٣) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩١ .

وعن زيد بن سعنة قال : ابتعت من رسول الله ﷺ تمراً إلى أجل ، فأعطيته الثمن فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيت فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت ، ألا تقضينى يامحمد حقى ؟ فوالله إنكم يا بنى عبد المطلب مطل ، فقال عمر : أى عدو الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ فو الله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته ، ففعل .

فقال زيد : يا عمر ، كل علامات النبوة عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما ، فقد خبرتهما ، فأشهدك أن قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا(١) .

شــروط النصيحة :

وليس المراد بالشرط هنا ما تعارف عليه الفقهاء ، وعرفوه بأنه « ما لا يوجد المشروط مع عدمه ، ولا يلزم أن يوجد عند وجوده »(٢) ولكن المراد بالشرط الأمور التى يستحسن وجودها عند القيام بالأمر حتى ترجى الفائدة منه ، وقد تكلم العلماء فى ذلك ، وأكدوا على ما يأتى :

١ ــ السـرية .
٢ ــ ألا تؤدى النصيحة إلى ضرر أكبر .
٣ ــ غلبة الظن باستجابة المنصوح .
٤ ــ تقديم النصيحة بصورة تؤدى إلى قبولها .

وقالوا : إن وجود هذه الشروط يجعل النصيحة مفيدة ويدعو المنصوح

---

(١) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ .
(٢) مطالب أدلى النهر ص ٣٠٥ .

obeikandl.com

إلى تقبل النصح ، وبذلك يكون عمل الدعاة إلى الله مثمراً ، وجهدهم مشكورا .

أولاً : السرية فى النصح ، وذلك مطلوب ومهم إذا كان المنصوح شخصاً بعينه ، والخطأ غير متكرر من الناس ، ففى هذه الحالة تكون السرية هى أفضل السبل إلى تأثير النصيحة فى المنصوح ، ولهذا قالوا : « من نصح أخاه سراً فقد زانه ، ومن نصحه جهراً فقد أهانه وشانه » .

أما إذا كان الخطأ متكرراً شائعاً ، أو كان المقصود تحذير الناس من الوقوع فيه ، أو تعليم الناس أمراً هاماً ما يحتمل التباسه عليهم ، فعندئذ يكون الجهر بالنصيحة أفضل من الإسرار .

وحين يجهر بالنصح لا يذكر اسماً بعينه ، ولا يخص شخصاً بذاته ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ حين وقف ينبه على بعض الأخطاء التى وقعت من أناس معلومين له ﷺ ومع ذلك لم يذكر أسماءهم ، ولم يعين شخصاً منهم ، بل قال : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا .

فالسرية إذن ليست شرطاً لازماً لكل نصيحة ، كما أن الجهر ليس بغيضاً فى كل نصيحة ، بل لكل منهما مناسبته وظروفه التى تحدد نوع النصيحة ، وطريقة أدائها .

ثانياً : ألا تؤدى النصيحة إلى وقوع ضرر أكبر ، وذلك شرط حتمى فى كل نصيحة ، ذلك لأننا نريد بالنصيحة رفع ضرر محظور فإذا ترتب على فعلها وقوع ضرر أكبر يكون السكوت أفضل من تأديتها ، فالعاقل لا ينهى عن السيجارة لتشرب الخمر ، ولا ينهى عن شرب الخمر ليقتل نفساً ، ولا يستنكر النظرة ليتسبب فى هتك عرض ، ولا يأمر باستعمال السواك حين يغلب على ظنه أن المأمور قد يترك الصلاة ، ولا يحض على تقصير الثوب وهو يظن أن ذلك قد يؤدى إلى إسباله وجره خيلاء .

فدفع أعظم الخطرين حتى إذا لم يكن بد من دفع أحدهما ، وتحمل أخف الضررين ، واجب إذا كان لا بد من تحمل أحدهما .

تلك قاعدة أصولية استقر عليها أمر العلماء ، ونحن ملزمون بتطبيقها والسير على هديها ، فأيما أمر بمعروف أدى إلى فعل محرم أعظم من المتروك فالمعروف هنا هو ترك الأمر بالمعروف ، وأيما نهى عن منكر أدى إلى ارتكاب منكر أكبر منه فالمنكر هنا هو النهى عن المنكر والإرشاد أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يتدبر عاقبة أمره عند الأمر والنهى .

وليس معنى هذا أن نقف أمام المنكر متفرجين ، وأن نسكت عن الأمر بالمعروف حتى تظهر نتائج البحث والدراسة بل يكفى فى ذلك غلبة الظن ، وتجربة المرشد ، وحسن النية .

فالحسن بن على رضى الله عنهما قد بايعه الناس بالخلافة بعد أبيه ، واجتمع عليه أربعون ألفاً من المسلمين ، كلهم كان الحسن أحب إليه من أبيه ، وكانوا أطوع له من بناته ، وسار بهم فعلاً إلى معاوية ، واضطر معاوية أن يخرج بجيش الشام لصدهم .

وتقارب الجمعان ، وكانت الحرب وشيكة الوقوع ، فرأى الحسن رضى الله عنه أن خلع معاوية لن يتم إلا بعد هلاك المسلمين ، وأن الأمر لن يخلص لأحدهما حتى يذهب أكثر الفئتين ، عندئذ أقر معاوية على وضعه ـــ مع ما فى ذلك من مخالفة خطيرة لقاعدة اختيار الخليفة فى الإسلام ـــ وتنازل عن حقه ، ليحقن دماء المسلمين وليخمد فتنة كادت تقضى عليهم .

لا شك أن اقتناص الحكم ، والوثوب عليه من غير طريقه المشروع أخف ضرراً من إزهاق أرواح المؤمنين ، وإشعال نار الفتنة بينهم لهذا رضى الحسن بتحمل أخف الضررين ، ودفع أفدح الخطرين .

وخطبة الحسن رضى الله عنه بعد تنازله لمعاوية تثبت تلك الحقيقة ، فقد روى الشعبى قال : لما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية : قم فاخطب بالناس ، واذكر ما كنت فيه ، فقام الحسن ، فخطب فقال : الحمد لله الذى هدى بنا أولكم ، وحقن بنا دماء آخركم ، إلا أن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون كان أحق به منى ، أو يكون حقى تركته لله ، وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم ، ثم التفت إلى معاوية فقال : « وإن أدرى لعله فتنة لكم

ومتاع إلى حين »[1] .

وأما خروج الحسين رضى الله عنه على يزيد بن معاوية فلأنه كان يعتقد أن له شيعة فى الكوفة سيؤيدونه وينصرونه ، فلما تبين له الأمر ، ووقف على حقيقته ، عزم على الرجوع ، وطلب من جيش يزيد السماح له بالعودة ولكن الجيش لم يسمع له واضطر إلى خوض المعركة .

روى الدينورى أن عمر بن سعد أرسل إلى الحسين وهو بكربلاء يسأله ، ما أقدمك ؟ فقال الحسين لرسول عمر : « أبلغه عنى أن أهل هذا المصر كتبوا إلى يذكرون ألا إمام لهم ، ويسألوننى القدوم عليهم ، فوثقت بهم ، فغدروا بى ، بعد أن بايعنى منهم ثمانية عشر ألف رجل ، فلما دنوت فعلمت غرور ما كتبوا به إلى أردت الانصراف إلى حيث منه أقبلت ، فمنعنى الحر بن يزيد ، وسار حتى جعجع بى فى هذا المكان ، ولى بك قرابة ، قريبة ، ورحم ماسة ، فأطلقنى حتى انصرف »[2] .

فلولا اضطرار الحسين رضى الله عنه لعاد إلى حيث أتى لتأكده أن الخسائر ستكون أفدح وأعظم من المكاسب ، ولهذا طلب العودة وعدم القتال .

ثالثاً : غلبة الظن باستجابة المنصوح ، وهذا الشرط ليس حتمياً ، واختلف فيه العلماء ، فقال به بعضهم وأكده ، وحجته فى ذلك أنه إذا لم يغلب على الظن أن المنصوح سيستجيب لا تكون هناك فائدة مرجوة من النصيحة والنصيحة إنما تبذل للاستفادة بها ، والعمل بمضمونها ، لا لمجرد القول فإذا لم يتغلب رجحان الظن بعمل المنصوح بها فلا حاجةإلى بذلها .

وأما الذين لا يرون اشتراط ذلك ، فحجتهم أن المسلم مأمور بتأدية النصيحة ، وبذلها لمن هو بحاجة إليها ، وليس هناك دليل شرعى يستند عليه ممسك النصيحة إذا لم يغلب عليه الظن باستجابة المنصوح ، فعلى المسلم أن يبذل النصيحة ، ولا يضن بها ، سواء استجاب المنصوح أم لم يستجب ، ذلك لأنه مسئول عن النصيحة ، وسيحاسب على تركها ، ولكن ليس مسئولاً عن عدم استجابة المنصوح ، فعليه أن يسقط مسئوليته ببذل النصيحة ، وليس

(١) مختصر سيرة الرسول ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤ والآية من سورة الأنبياء ١١١ .

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

عليه أن يبوء المنصوح بإثم عدم الاستجابة .

وهذا هو أعدل الرأيين فى المسألة ، وأوفقهما لأحكام الشرع وأنسبهما لمهمة الدعاة والمصلحين ، وقديماً قال الشاعر :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المقاصد

رابعاً : وتقديم النصيحة فى صورة مشرفة ، لا لوم فيها ولا تعنيف ، خالية من جرح شعور المنصوح ، أو إظهاره فى صورة المخالف الجاهل شرط فى قبول النصيحة والاستفادة منها .

دخل أحد الوعاظ على هارون الرشيد فأغلظ فى نصحه ، وأغلظ فى نكيره ، فقال هارون : ما هكذا تكون النصيحة ، إن الله عز وجل قد أرسل من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمرهما أن يلينا القول ويحسنا العرض ، فقال عز من قائل ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[1] .

والآية الكريمة هى دليل من اشترط هذا الشرط ، ومفهوم الآية ، أن لين القول ، وحسن العرض يثمر التذكر والخشية بإرادة الله عز وجل وعدم استفادة فرعون من النصيحة مع استكمال شروطها يؤكد أن بذل النصيحة واجب وإن لم يستجب المنصوح .

والغالب المشاهد أن النصيحة إذا استكملت شروطها ، وأديت على وجهها تؤتى ثمرتها ، والنموذج العملى الرائع لتأدية النصيحة مستكملة شروطها ، مستوفية حقوقها ما حدث من شابين كانا يسيران فرأيا رجلاً شيخاً كبيراً يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فعزما على نصحه وإرشاده ، ولكنهما خشيا أن يرفض الشيخ ، فدبرا أمرهما ، وانتظرا حتى انتهى من وضوئه ، وتقدما إليه .

قال أحدهما : يا عماه إن أخى يتهمنى بأنى لا أحسن الوضوء ، ويزعم أنه يتوضأ خيراً من وضوئى ، وقد رأيناك تتوضأ فرضيناك حكماً ، فهل تقضى بيننا ؟ .

وأجاب الشيخ ، لا بأس يا بنى ، وتقدم الأصغر فتوضأ وضوءاً حسنا ، ثم تقدم الأكبر فأحسن وأسبغ ، عندئذ تنبه الشيخ لخطئه ، وقال : كلاكما أحسن

---

(١) سورة طه ٤٣ ــ ٤٤ .

وأسبغ ، وأنا الذى بحاجة لأن أتقن وضوئى وشكر لهما وانصرف الشابان .

تلك نصيحة استوفت شروطها ، فالناصح عالم بالحكم الشرعى ، وتحرى الطريقة المناسبة ، وعمل بما ينصح به .

والنصيحة لم تؤد إلى ضرر قط ، وأديت فى صورة مشرفة جيدة قبلها المنصوح ، لهذا أثمرت وآتت أكلها ، فانتفع بها المنصوح ، ورفعت الحرج عن الناصح ، وعم خيرها ، فكانت درساً للذين يلون هذا الأمر من المسلمين ، يتأسون به ، ويسيرون على نهجه وهديه .

وليست النصيحة محصورة فى دائرة ضيقةلا تتعدى محيط العامة فى الشارع والدكان ، والمكتب والسوق ، والمسجد والمدرسة ولكنها تخترق هذا النطاق ، فتطرق دواوين الرؤساء ومكاتب الحكام ، وتصل إلى قلب كل إنسان ، وجعل الإسلام هذا النوع من النصح فى درجة عالية ، كما جعل مثوبتها قمة تقتصر دونها كل مثوبة ، حيث جعل أجرها الجنة ، وسماها أفضل الجهاد والناصح إذا قتل من أجل نصيحته فهو من سادة الشهداء يقول ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »(١) .

ويقول : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »(٢) .

وقد يستشكل بهذا الحديث على الشرط الثانى للنصيحة ، لأن القتل أعظم جرماً من مجرد الظلم ، فكيف نزيل هذا الإشكال ؟

الحقيقة أن القتل أشد من الظلم ، إذا كان الظلم واقعاً من فرد عادى من أفراد الأمة ، لأن ظلم الفرد العادى لا يتعدى اغتصاب حق إنسان ، أو الاعتداء على حرمة من الحرمات ، فإذا كانت النصيحة حينئذ ستؤدى إلى القتل ، فعدم أدائها أولى .

أما ظلم الحكام ، واعتداء الإمام فإنه هلاك للأمة بأسرها ، وانحراف عن جادة الحق التى ما قامت الدولة الإسلامية إلا لتثبيتها ، كما أن فيه إذلالاً

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه الحاكم .

للشعب ، وتحطيماً لمعنوياته ، وفى ذلك ضياع الأمة وتعريض لها لخطر الغزو من أعدائها .

والسكوت على ظلم الإمام تشجيع له على التمادى فى الباطل ، ويهون عليه تعطيل الشريعة ، حتى ينتهى الأمر بإزالة معالم الدولة الإسلامية .

وليس المقصود بظلم الحاكم ، ما يقع منه من ظلم على أفراد الرعية فإن الحاكم غالباً عنده ما يغنيه عن الاعتداء على حقوق رعيته وإنما المقصود انحرافهم عن الدين ، ومجاهرتهم بعداوته ، وتفضيل النظم المستوردة على نظمه من حيث التشريعات والسياسة والاقتصاد والأحوال الاجتماعية والأوضاع العسكرية إلى غير ذلك من النظم التى جاء بها الإسلام .

فإذا حصل من الحكام ذلك تحتم الوقوف فى وجوههم لإنقاذ الأمة من هذا الهلاك المحقق ، والتضحية بالنفس لنصرة الدين وتثبيت قواعده أمر مقرر فى الشريعة ، ولهذا أخبر ﷺ أن الرجل الذى يقف فى وجه السلطان الجائر ليرده عن جوره ويحمى الدين من شره ، إذا قتله الإمام لذلك ، كان سيد الشهداء .

ولقد أدت الرعية هذا الحق للإمام فى عهد رسول الله ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، واستمر الأمر على ذلك حتى فسد الناس ، وسايروا الظالمين ، وخافوا الحكام ، ولم يخافوا الله فسكتوا على الظلم ، وبخلوا بالنصح ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، ونسوا موقفهم بين يدى الله وتناسوا سؤاله سبحانه عن علمهم ماذا عملوا فيه ؟ .

وكان الخلفاء يشجعون الناس على قول الحق بتقبله منهم ، حتى قال قائلهم : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها ـــ كلمة الحق ـــ ولا خير فينا إذا لم نسمعها » وفى الحديث الشريف « إذا هابت أمتى أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منهم ، وباطن الأرض خير لهم من ظاهرها » .

علم المسلمون أن النصيحة حق من حقوق القيادة فبذلوها تسديداً للحكام ، وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للناس ، ورفعاً للحرج عن أنفسهم ، وأخذاً بيد الأئمة إلى مثالية رفيعة ، عزلها نظير في تاريخ الحكومات قبل الإسلام .

وفتحت القيادة صدرها للجنود ليبدوا فى سياسة الدولة ، ويشاركوا فى توجيهها ، ويتحملوا نصيبهم من تبعاتها ، ولم لا ؟ وكل واحد منهم مرشح لأن يكون خليفة فى دولة بنت سياستها على أن الأكفأ — ولو كان من الأدنين — هو الأجدر بقيادتها ، وتسيير دفتها ، وفى هذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته » .

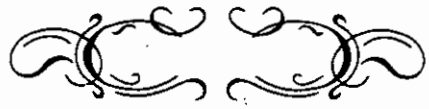

obeikandl.com

أمثلة عمليـــة

من عهـد الرســول :

فى غزوة بدر نزل رسول الله ﷺ أدنى ماء من مياه بدر ، ونظر الحباب ابن المنذر ، فوجد المكان غير مناسب ورأى أن المعركة تستلزم تخطيطاً غير ذلك ، فوقف فى أدب الجندى أمام القائد وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم تغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأى[1] وينهض القائد بجنده ، وينزل حيث أشار الحباب رضى الله عنه .

لا شك أن الجندى إذا كتم هذه النصيحة ، وهو يعلم قيمتها يكون خائناً لقيادته ، لأنه قد يترتب على كتمانها من المفاسد ما يمكن أن تتجنبه لو فطنت لذلك ، ولا شك أن القيادة إذا رفضت تلك النصيحة بعدما تبين لها وجه الحق فيها ، والمصلحة التى تعود على المسلمين من اتباعها تكون مسئولة أمام الله عز وجل عن إهمال العمل بها مسئولية تعرضها للوم العنيف والوعيد الشديد ، وبالتالى تكون غير جديرة بقيادة أمة فيها أمثال هؤلاء الجنود ، ولكن الجندى أثبت إخلاصه بتقديم النصح ، وأثبتت القيادة جدارتها بقبوله .

وفى هذا الموقف الرائع آداب يجب استعراضها لنتأسى بها فى حياتنا ، ونستفيد منها فى توجيه جنودنا .

أولاً : الشجاعة الأدبية التى يتحلى بها الجندى المسلم ، والتى رأى

---

(١) سيرة ابن هشام م ١ ص ٦٢٠ .

الإسلام جنوده عليها ، وهى صفة يتحلى بها الرجال فتعلى من قدرهم وترفع من شأنهم ، وقد تجلت فى الحباب فى هذا الموقف الجرىء .

ثانياً : التقيد بأمر الله تعالى بحيث لا يجوز مخالفته فى صغيرة ولا كبيرة ، « يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ؟ » .

ثالثاً : بذل النصيحة للقيادة إذا كان هناك مجال للرأى « قال الرسول بل هو الرأى والحرب والمكيدة » عندئذ يقول الحباب : « يا رسول الله ، هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم » .

رابعاً : احترام آراء الجند والاستماع إليهم ، وتنفيذ الصالح منها ، ويظهر ذلك فى احترام الرسول ﷺ لرأى الحباب حيث قال : « لقد أشرت بالرأى » .

من عهد أبى بكر :

وفى أول يوم يتولى فيه أبو بكر رضى الله عنه أمر المسلمين ، يرسم سياسته ، ويعلنها فى خطبة على المنبر ، فيقول : « أيها الناس ،إنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أربح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم[1] .

وبهذه الكلمات القصيرة ذات اللمحات الكثيرة ، تفتح القيادة صدرها للجنود ، وتطلب منهم العون والتسديد ، وتؤهلهم لممارسة واجبهم فى بذل النصح ، وتسديد القيادة ، ومساندة الحق .

---

(١) الصديق أبو بكر ص ٧٢ .

ومن عهد عمر :

ويأتى دور عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيتولى أمر المسلمين بعد أبى بكر رضى الله عنه ويخطب الناس فيقول : « اتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم »[1] .

وبين للناس أن عليهم الطاعة فى المعروف ، وأنه مستعد ليتلقى منه النصح والتقويم فقال : « أيها الناس من رأى فى اعوجاجاً فليقومه » فأجابه رجل منهم « والله لو علمنا فيك اعواجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

لم ينزعج عمر لما سمع ، ولم يبطش بالقائل المجترىء ، ولم يفرض الرقابة على الأفواه ، ولكن عمر رضى الله عنه سر لذلك وعبر عن هذا السرور بقوله : « الحمد لله الذى جعل فى عمر من لو رأى فيه اعوجاجاً قومه بسيفه »[2] .

لم تكن تلك كلمة مجاملة ،ولم تكن كذلك لوناً من النفاق السياسى الذى يلجأ إليه الضعفاء من الحكام يخدعون به الشعوب ليستميلوا قلوبهم البلهاء ، بل كانت كلمة حق خرجت من قلب الخليفة لتستقر فى قلوب رعيته ، وقد أثبتت الأحداث صدق هذا الخليفة فيما دعا الناس إليه ، فلم يتبرم بنصح ، ولم يضق طول مدة خلافته بنقد .

هم يوماً بتحديد قيمة الصداق ، فعارضته امرأة من الحاضرين على ملأ من الناس ، وقالت : « إن الله عز وجل يعطينا بالقنطار ، وأنت تريد أن تحدد ذلك يا عمر » والمرأة تشير إلى قوله تعالى : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا** ﴾ عندئذ يرجع عمر إلى الحق ، ويقول : « كلهم أعلم منك حتى النساء يا عمر » .

ووقف يوماً يخطب فقال : « أيها الناس اسمعوا وأطيعوا فأجابه رجل ،

---

(١) عبقرية عمر ص ١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .

لا سمع اليوم ولا طاعة يا ابن الخطاب .

قال عمر : ولم ؟

قال الرجل : لأنك أعطيت كلا منا ثوباً ونرى عليك ثوبين .

قال عمر : يجيبك عن ذلك عبد الله بن عمر .

فقام ابن عمر وقال : إن الثوب الثانى هو ثوبى ، وقد أعطيته أبى ليكمل به ثوبه ، حيث كان ثوب أبى قصيراً .

قال الرجل : أما الآن فقل ، نسمع ونطيع .

لم يضق صدر عمر بهذا النقد ، ولم يبطش بالناقد لأنه يعلم أن الرجل يمارس حقه فى توجيه الحكام ، والأخذ بأيديهم إلى طريق الخير الذى يجعل المودة دائمة بينهم وبين شعوبهم ، ولأن عمر يحرص على أن الخليفة يجب أن يكون واحداً من المسلمين لا يتميز عليهم ، ولا يستأثر دونهم بشىء .

وكان عمر يرى أن الخليفة إذا ميز نفسه بشىء دون رعيته ولم يجد من يحاسبه ، ويذكره فإنه يستمرىء ذلك ، ويستفحل الأمر ، وتحدث الفتنة التى تفرق بين الحاكم ورعيته ، وذلك أول فساد يدب فى المجتمع ، ويقوض العلاقات الودية بين الحاكم وبين المحكومين .

وهو أول خطوة فى طريق الاستبداد ، وبسببه تسير الأمم نحو حكم دكتاتورى بغيض ، فتتنكب الطريق ، وتضل السبيل ، وتطيح فى هوة سحيقة تفرق بين الحكام والمحكومين ، فلا يلتقيان بعدها أبدا .

إن عمر فى نظر الأعرابى أخطأ الطريق ، فأحس بأنه مسئول عن تقويمه ، وإعادته إليه ، فقدم له النصيحة ، وإنما عمر رجل من المسلمين كما علمهم غير مرة ، فبأى حق يأخذ ثوبين ، ويأخذ الناس ثوباً ثوباً ، نعم إن عمر أثقل المسلمين حملاً ، وأكثرهم تبعة ، ولكن ذلك لا يمنحه حق التميز عن رعيته ، لهذا رأى الأعرابى أن ينصحه بالعدول عن هذا الخطأ ، أو ليس هو القائل : « وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضار النصيحة ؟ » .

وجه الأعرابى النصيحة إلى عمر ، وقد جاءت فى صورة جافة خشنة ، ولكن عمر لم يغضب منها ، لأنه خبير بطبائع البدو وعاداتهم ومعاملاتهم ، لذلك تلقاها بصدر رحب ، وبين له الحقيقة .

ولم يكد الأعرابى يقف على حقيقة الأمر ، ويتبين له خطأ اعتقاده ، وظهرت له براءة الخليفة ، حتى بادر إلى السمع والطاعة « أما الآن فقل نسمع ونطيع » .

والله نسأل التوفيق والسداد والحمد لله رب العالمين .

وإلى اللقاء مع القسم الثانى

وهو الذى يبحث موضوع الجندية فى الإسلام

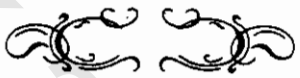

obeikandl.com

ثبت المراجـع

اسم الكتاب — **اسم المؤلف**

أولاً : القـرآن الكريم :

ثانياً : كتب الحديث :

البخارى ــ محمد بن إسماعيل البخارى .
التاريخ الكبير ــ محمد بن إسماعيل البخارى .
الترمذى ــ محمد بن عيسى الترمذى .
أبو داود ــ سليمان بن الأشعث السجستانى .
شعب الإيمان ــ أحمد بن الحسين البيهقى .
فتح البارى ــ أحمد بن على العسقلانى .
مسـلم ــ مسلم بن الحجاج القشيرى .
مختصر صحيح مسلم ــ عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى .
المسـند ــ أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى .
مشكاة المصابيح ــ محمد بن عبد الله الخطيب .
المطالب العالية ــ أحمد بن على العسقلانى .
النسـائى ــ أحمد بن شعيب النسائى .

ثالثاً : كتب التفسير :

أنوار التنزيل ــ عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى .
جامع البيان ــ محمد بن جرير الطبرى .
فتح القدير ــ محمد بن على الشوكانى .

رابعاً : كتب السيرة :

حياة محمد ــ محمد حسين هيكل .
السيرة النبوية ــ عبد الملك بن هشام المعافرى .
السيرة الحلبية ــ نور الدين بن برهان الحلبى .
مختصر سيرة الرسول ــ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب .

اسم الكتاب	اسم المؤلف

المواهب اللدنية ــ أحمد بن محمد بن أبى بكر العسقلانى .

خامساً : كتب عامة :

إتمام الوفاء ــ محمد الخضرى .

الأخبار الطوال ــ أحمد بن داود الديثورى .

الإرشــاد ــ عبد الملك بن عبد الله الجوينى .

الإسلام عقيدة وشريعة ــ محمود شلتوت .

الأساطيل العربية ــ الدكتور إبراهيم العدوى .

الإسلام وأوضاعنا السياسية ــ عبد القار عودة .

تاريخ الإسلام ــ الدكتور حسن إبراهيم حسن .

التربية الإسلامية ــ المؤلف .

الخراج ــ لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم .

الخلافة والإمامة ــ عبد الكريم الخطيب .

الديمقراطية فى الإسلام ــ عباس محمود العقاد .

رسالة الفروسية ــ محمد بن أبى بكر المشهور بابن القيم .

سمط النجوم العوالى ــ عبد الملك بن حسين العصامى .

السياسة الشرعية ــ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .

الشورى فى الإسلام ــ الدكتور بابللى .

الصديق أبو بكر ــ محمد حسين هيكل .

عبقرية عمر ــ عباس محمود العقاد .

العلم عند العرب ــ اليدوميلى .

فجر الإسلام ــ أحمد أمين .

الكامل ــ على بن محمد بن محمد الشهير بابن الأثير .

مقدمة ابن خلدون ــ عبد الرحمن بن خلدون .

مقومات الاقتصاد الإسلامى ــ عبد السميع المصرى .

مطالب أولى النهى ــ مصطفى السيوطى الرحيبانى .